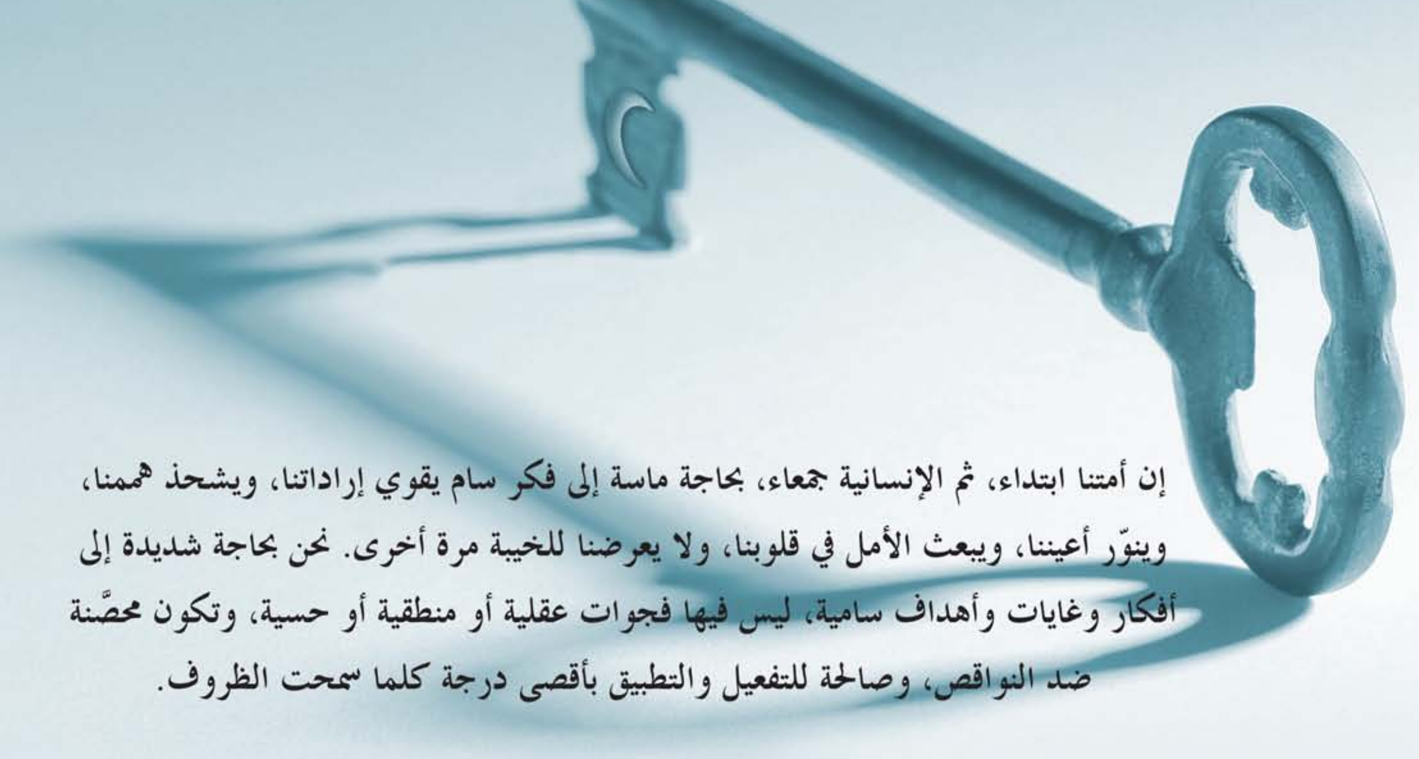
العدد الثامن عشر / السنة الخامسة / (يناير - مارس) ٢٠١٠



www.hiramagazine.com



إن أمتنا ابتداء، ثم الإنسانية جمعاء، بحاجة ماسة إلى فكر سام يقوي إراداتنا، ويشحذ هممنا، وينوّر أعيننا، ويبعث الأمل في قلوبنا، ولا يعرضنا للخيبة مرة أخرى. نحن بحاجة شديدة إلى أفكار وغايات وأهداف سامية، ليس فيها فجوات عقلية أو منطقية أو حسية، وتكون محصَّنة ضد النواقص، وصالحة للتفعيل والتطبيق بأقصى درجة كلما سمحت الظروف.

الافتتاحية



التأكيد على الذات

الإنساني المفعم بحب الإنسان هو وحده الذي يحترم إنسانية الإنسان، ويحرص على أن يظل جوهره في طواياه سالماً لا تطاله معاول الهدم والتخريب، وهو يسعى إلى النفاذ إلى دواخله والعمل بكل جد على تمدين ما تبقى في هذه الدواخل من وحشية قرون ما قبل التاريخ، وأثارات من حيوانية الكهوف والغيران، ثم يسمو به إلى أعلى درجات الفكر، وأرفع ما يمكن أن يصل إليه من إدراك لمكانته العالية في سلّم الخلق والوجود.

فالرسالة الإحيائية للأستاذ "فتح الله كولن" والتي يكرس لها قلمه تندرج في هذا الاتجاه. فهو يسعى إلى إحياء "ذات المسلم" وبعثها من جديد وجعله يعتز بإنسانيته ويكنّ لها من الاحترام ما يمنعه من امتهانها والنزول بها منازل أسفل سافلين. والأستاذ يرى أن الحقيقة الكامنة وراء جميع الصراعات الحضارية والإنسانية تتمثل في الرغبة على تأكيد الذات، وإن هدف الحياة يدفع في اتجاه بعث الإرادات السامية من أجل فهم الإنسان لذاته، وتقويم المعنى الأقدس لوجوده، غير أن الذات التي مضى على نومها القرون الكثيرة لا يجدي لإنهاضها وإيقاظها اللمسات التحسيسية الناعمة، بل لابد من هِزّة قوية تطير النوم عن أجفانها، ومن هنا نستطيع أن نفهم توكيدات الأستاذ على هذه القضية في المرة تلو المرة.

وقد سعت "حراء" منذ صدورها إلى التنبيه إلى هذه المهمة المقدسة التي يتوقف عليها نهوضنا الديني والحضاري. إنها تحاول جهد إمكانها على إعادة تدفق الدم النقي من جديد إلى أجزاء روح المسلم التي بدت وكأنها تموت من السأم والضجر. وهذا الخط المعرفي الذي اختطته "حراء" لنفسها لا تزعم أنه الخط الذي يكفي ويغني، لذلك فهي تؤمن بالحوار وتبادل الأفكار والاطلاع على خبرات الآخرين وتجاربهم. ولعل المؤتمر الذي انعقد في "القاهرة" في يوم ١٩-٢١ من شهر أكتوبر ٢٠٠٩ تحت عنوان "مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي خبرات مقارنة مع حركة فتح الله كولن التركية" دليل على رغبتنا الصادقة في أن نفهم عن الآخرين، وأن يفهم الآخرون عنا، والإفادة من تجارب بعضنا من البعض الآخر. فأمثال هذه المؤتمرات تسهم في التقريب بين الأفكار ووجهات النظر المختلفة.

وبعد.. فبمزيد من الأسى واللوعة تنعي "حراء" إلى قرائها الأستاذ الدكتور "فريد الأنصاري".. إذ وافاه الأجل المحتوم في يوم ٦ من شهر نوفمبر ٢٠٠٩ في أحد مشافي "إسطنبول"، بعد صراع رهيب مع مرضه العضال. والأستاذ "فريد الأنصاري" كان واحداً من أبرز كتّاب "حراء" وأصدقهم غيرة عليها، فأتحفها بالكثير من المقالات والدراسات التي لاقت الاستحسان والإكبار من قرّاء المجلة الكرام. ونحن إذ نفتقد واحداً من أقدر الأقلام وأكثرها تألقاً، نعزي أنفسنا ونعزي قراءنا داعين الله أن يتغمده برحمته الواسعة ويسكنه فسيح جناته ويجزيه عنا خير الجزاء... ■



www.hiramagazine.com

العدد الثامن عشر – السنة الخامسة (يناير – مارس) ٢٠١٠

التصور العام

- حراء مجلة علمية ثقافية فصلية تعنى بالعلوم الطبيعية والإنسانية والاجتماعية وتحاور أسرار النفس البشرية وآفاق الكون الشاسعة بالمنظور القرآني الإيماني في تآلف وتناسب بين العلم والإيمان، والعقل والقلب، والفكر والواقع.
- تجمع بين الأصالة والمعاصرة وتعتمد الوسطية في فهم الإسلام وفهم الواقع، مع البعد عن الإفراط والتفريط.
- تؤمن بالانفتاح على الآخر، والحوار البناء والهادئ فيما يصب لصالح الإنسانية.
- تسعى إلى الموازنة بين العلمية في المضمون والجمالية في الشكل وأسلوب العرض، ومن ثم تدعو إلى معالجة المواد بمهنية عالية مع التبسيط ومراعاة الجوانب الأدبية والجمالية في الكتابة.

شروط النشر

- أن يكون النص المرسل جديدا لم يسبق نشره.
- ألا يزيد حجم النص على ٢٠٠٠ كلمة كحد أقصى، وللمجلة أن تلخص أو تختصر النصوص التي تتجاوز الحد المطلوب.
- يرجى من الكاتب الذي لم يسبق له النشر في المجلة إرسال نبذة مختصرة عن سيرته الذاتية.
- تخضع الأعمال المعروضة للنشر لموافقة هيئة التحرير، ولهيئة التحرير أن تطلب من الكاتب إجراء أي تعديل على المادة المقدمة قبل إجازتها للنشر.
- المجلة غير ملزمة بإعادة النصوص إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر، وتلتزم بإبلاغ أصحابها بقبول النشر، ولا تلتزم بإبداء أسباب عدم النشر.
- تحتفظ المجلة بحقها في نشر النصوص وفق خطة التحرير وحسب التوقيت الذي تراه مناسبا.
- النصوص التي تنشر في المجلة تعبّر عن آراء كُتّابها، ولا تعبّر بالضرورة عن رأي المجلة.
- للمجلة حق إعادة نشر النص منفصلاً أو ضمن مجموعة من البحوث، بلغته الأصلية أو مترجمًا إلى أي لغة أخرى، دون حاجة إلى استئذان صاحب النص.
- مجلة حراء لا تمانع في النقل أو الاقتباس عنها شريطة ذكر المصدر.

يرجى إرسال جميع المشاركات إلى هيئة تحرير المجلة على العنوان الآتي:

hira@hiramagazine.com

مجلة علمية ثقافية فصلية تصدر عن:

Işık Yayıncılık Ticaret A.Ş

İstanbul / Türkiye

صاحب الامتياز

مصطفى طلعت قاطيرجي أوغلو

المشرف العام

نوزاد صواش

nsavas@hiramagazine.com

رئيس التحرير

هانئ رسلان

hraslan@hiramagazine.com

مدير التحرير

أجير إشيوك

eisiyok@hiramagazine.com

المخرج الفني

مراد عرباجي

marabaci@hiramagazine.com

المركز الرئيس

HIRA MAGAZINE

Kısıklı Mah. Meltem Sok.

No:5 34676 Üsküdar

İstanbul / Turkey

Phone: +902163186011

Fax: +902164224140

hira@hiramagazine.com

مركز التوزيع

٧ ش البرامكة – الحي السابع – م.نصر/القاهرة

تليفون وفاكس: +20222631551

الهاتف الجوال: +20165523088

جمهورية مصر العربية

نوع النشر

مجلة دورية دولية

Yayın Türü

Yaygın Süreli

رقم الإيداع

١٨٧٩-١٣٠٦

للاشتراك من كل أنحاء العالم

pr@hiramagazine.com



المحتويات

EGYPT
7, el-Barameka st, off al-Tayaran st. al-Hay al-Saabi
Nasr City-Cairo/EGYPT
Tel-Fax: +20222631551 Mobile: +20165523088

TÜRKİYE
Kısıklı Mahallesi, Meltem Sokak, No:5
34676 Üsküdar-İstanbul/TÜRKİYE
Phone:+90(216) 318 60 11 Fax:+90(216) 422 41 40

USA
The Light, Inc.
26 Worlds Fair Dr. Unit C Somerset,
08873 New Jersey, USA
Phone:+1 732 868 0210 Fax:+1 732 868 0211

SAUDI ARABIA
AL Watania Distribution الوطنية للتوزيع
P.O.BOX 8454 Riyadh Zip Code: 11671 Saudia
Tel: +966 1 4871414
GSM: +966 504358213

SYRIA
GSM: +963 944 355675

MOROCCO
الدار البيضاء ٧٠ زنقة سجلماسة
Société Arabo-Africaine de Distribution,
d'Edition et de Presse (Sapress)
70, rue de Sijilmassa, 20300 Casablanca / Morocco
Tel: +212 22 24 92 00

YEMEN
دار النشر للجامعات
الجمهورية اليمنية، صنعاء، الخط الدائري الغربي، أمام الجامعة القديمة
Tel: +967 1 440144
GSM: +967 711518611

ALGERIA
GSM: +213 770 625650

SUDAN
Tel: +249 918248388

JORDAN
GSM: +962 776 113862

UNITED ARAB EMIRATES
دار الفقيه للنشر والتوزيع
ص.ب. 6677 أبو ظبي
Tel: +971 266 789920

رسالة الإحياء

فتح الله گولن

لم نعرف حتى اليوم أيديولوجية نجحت في جمع البشر في ظلها زمنا طويلاً، بل لم نعرف أيديولوجية اكتشفت كل الضرورات اللازمة التي يتطلبها جمع البشر تحت سقف واحد. ومع الادعاءات الباهرة، لم تستطع الدول الغربية التي هيمنت على قسم واسع من الأرض في التاريخ القريب أن تحقق الأمان والحبور الدائم للعالم، ولا الشعوب الاشتراكية والشيوعية في الشرق، ولا "المحايدون" الذين سواء وجودهم وعدم وجودهم، والذين عبر عنهم "جميل مريج" بـ"رجال الأعراف". إن الإخفاق في تحقيق الوعود، زعزع أركان الثقة لدى المترقبين والمستعدين للاستقبال، وزيادة على ذلك، فإن عجز الحلول المطروحة عن البلوغ إلى مستوى العالمية، وقصورَها عن احتضان البشرية كلها، ومخالفتَها للطبيعة الإنسانية، قد أوقع الجميع في أزمة انعدام الثقة... بل في الريبة والشك في كل وعود من يعد! فتقف الإنسانية اليوم مع كل نظام يعرض عليها موقفَ الشك والقلق والاستهزاء.. لأنها باتت تعتقد أن الأنظمة التي فُرضت عليها حتى اليوم لم تعمل كما ينبغي، بل عجزت عن العمل، وبالتالي هناك خلل في الأنظمة كلها!. وهذا يقتلع المحاسن التي غرستها تلك الأنظمة، فلا يبقيها في ذاكرة البشر إلا خيالاً بائساً ورؤى خائبة.

وكما أن نقص قطعة صغيرة في نظام ميكانيكي متكامل، يعطل عمل النظام ويحوله إلى ركام، فكذلك هذه الأيديولوجيات برزت إلى الميدان بادعاءات مبهرة، لكنها كانت عليلة بعلل وبيلة؛ مثل التضاد مع الطبع البشري، والعجزِ عن احتضان الفئات كلها، والقصورِ في إنجاز وعودها، والضعفِ في الاستجابة للحاجات الإنسانية؛ والأنكأ إغفالها مجموعة من القيم الإنسانية، بل تأجيج بعضها مشاعر الحقد والبغض والغيظ بين البشر... ذلك كله قوض أركان الأيديولوجيات كلها فخلفتْ خرائبَ فكرية وأنقاضا، أو قُلْ؛ هكذا حَدْسُ المجتمعات وظنُّها. ولذلك يمكن القول بأن الجميع اليوم -إلا شرذمة قليلة- في حالة تزعزع وخيبة أمل وترقب مريب وبحث عن مخرج خارق للأسباب.

بناء على ذلك، فإن أمتنا ابتداء، ثم الإنسانية جمعاء،

بحاجة ماســة إلى فكر سام يقوي إراداتنا، ويشحذ هممنا، وينوّر أعيننا، ويبعــث الأمل في قلوبنا، ولا يعرضنا للخيبة مرة أخرى. نحن بحاجة شديدة إلى أفكار وغايات وأهداف سامية، ليس فيها فجوات عقلية أو منطقية أو حسية، وتكون محصَّنة ضد النواقص التي ذكرناها آنفاً، وصالحة للتفعيل والتطبيق بأقصى درجة كلما سمحت الظروف. إننا نشــهد مرحلة يتغير فيهــا مركز العوالم الفكرية في الأرض، وتزحف العلاقات الأساســية والدائمية من عوالم الأشخاص إلى عوالم الأفكار، وتَضطرّ البشرَ بعد التجارب الفاشــلة إلى المبالغة في التمحيص. فإن وُفِّقْنا في اســتثمار هذا الوضع العام بإستراتيجيات متماسكة ومنسجمة، وتنظيم الحس الميتافيزيقي في المجتمع والنشاط الفعال المتراكم فيه منذ عصور، حول هدف سامٍ، فلسوف يجتمع الجمهور الأعظم من الإنسانية –ولو بنســبة معينة– ليحوموا حول هذا المركز الجاذب، إن لم يكن من يومه، ففي القابل القريب.

لكن ينبغي بادئ ذي بدء، تعيين ذلك الهدف الســامي. لقد تعرضــت أمم عديدة في الماضي، كمــا تتعرض في الحاضر، إلى هزات شديدة لتقاعســها في ربط سياساتها السارية بهدف سام وســليم، وقصر باعها في النفوذ إلى قلوب البشــر. صحيح أن هذه الحال أســطع ظهوراً في البلدان التي لم تستقر فيها الحضارة والديمقراطية اســتقراراً كاملاً؛ لكن الأمم التي ادعت لنفســها أســتاذية العالم في الحضارة والديمقراطية، ليست أحسن حالاً في هذا الأمر؛ فمهما كان بهرج ظواهرها، ومهما زعمت دعاياتها، فإن عديداً من الــدول التي تبدو عظيمة بترفها وبذخها وأبهتها، إنما تلهي في الواقع حشــود الغافلين بالخدع الوقتية لحركتها في فلك البراغماتية، وتصمت كالبكم إذ تدعو الحاجة للحديث عن الغد، حيثما يستوجب الرجاء في مستقبل مأمول مغبوط أو حياة راقية... والأنكأ للجرح أنها تتمــادى في تجويع القلب والروح والوجدان.

فالواجب علينا الآن –مع وضع هذه السلبيات نصب أعيننا– أن نضع أمامنا أهدافا ســامية نتخذ في سبيل تحقيقها قيمنا الذاتية أسسا لصياغة سياسات ومشاريع مستقبلية، حتى يتحقق الاستقرار في سياساتنا... وإذ يتحقق الاستقرار في السياسات، نتمكن من استخدام هاتين القوتين في الاتجاه عينه، من غير السماح للصِّدام بينهما. ونقول "من غير الصدام بينهما"، لعلمنا بأن أيّ نشــاط أو حركة معينة، مهما تمثلت بمشــاعر مخلصة، قد لا تكون بنّاءة دائماً. إن النية الخالصة جديرة بالتقديــر باعتبارها بعداً معنويا في الأعمال الصائبة؛ لكن لا تحمل المعنى نفســه البتة إذا كانت وصفاً مــن أوصاف العمل الخاطئ. إن أي حركة من الحركات قد تكون بنّاءة أو هدّامة حســب أنماط عرضها. وإذ يفيد العقل والمنطق والمشــاعر قيمة في أي مخطط أو مشروع، فإنه من المهم جداً وجود تمثيل ســليم ومتين له، إلى جانــب انعدام الثغرات العاطفية. وأحيانــا قد تبيد الأعمال بعضها بعضاً بــ"التعارض" و"التســاقط"، وإن كان كل عمل من هذه الأعمال بمفرده خيراً وصالحــاً؛ فعندما يحاول أفراد النمــل أن تنقل مادة إلى خليتها، فتتشوش بموجات الحس المؤقت أو باختلاف الأهداف في برنامجها الانسياقي المشــترك، يَسحَبُ بعضُها المادة إلى جهة وبعضها إلى جهة أخرى... فتبدد طاقتها كلها ثم لا تتقدم إلى الهدف. كذلك المجتمعات التي لا توجد لها أهداف سامية ومُثُل عليا، أو وُجِدت ولم تمتلك معهما جاهزية ذهنية تناسبهما، تجدها تتحرك باستمرار، لكنها لا تقطع شوطا، لأن قطع الأشواط يتطلب –منذ البداية– تعيينَ هدف سام يوقره الوجدان ويُرغّب فيه الانسياق الذاتي في نشــوة كنشوة العبادة، ثم تفعيل منظومة سليمة حسب معطيات الظــروف والبيئة العامة، ثم توجيــه مختلف دورات الطاقات إلى نقطة واحدة معينة، ويعني تســخير التراكم العلمي والتجريــبي والطاقة الكامنة لأمر ذلك الهدف الســامي والغاية المنشــودة.

لقد تكاثفت المســاعي الفردية كلها إبــان الكفاح الوطني (حرب الاســتقلال) في اتجاه تحقيق تركيا المستقلة. فهذا الهدف كان بســيطا جدا، ولكن اســتطاع أن يحوز على الاحترام من كل الفئات، فيســتحوذ على العقل والمنطق والعواطف، ويكثف الحــركات كلها في نقطة واحدة. فكانت هــذه القوة في إطار الشروط العادية والأخذ بالأسباب كافية لتحقيق الهدف المقصود. غير أن كل نصر وظفر يستجلب الفتور والزهو. لذلك، يصعب صعوبة شــديدة الحفاظ على نقاء لون الفكرة من التغير، وإدامة وجودهــا بحيويتها التامة. ونترك تقويم مدى نجاحنا في هذا الأمر للتاريخ... ونقول إنه لا مفر للمجتمع الذي يعيش الظفر والنصر من الوقوع في ارتخاء التحفز الميتافيزيقي والتورط في دوائر الفتور الفاسدة، ما لم يستمر إمداده بغذاء الأسباب الجديدة المحفزة نحو الأهداف والغايات الســامية. وقد لا نُصيبُ إذا حصرنا أسباب الارتخاء في هــذا التحفز إلى الفتــور المصاحب للانتصارات في العادة، أو إلى نشــوة النصر، أو إلى الانقباض واللامبالاة التي قد



إن قضيتنا الكبرى التي تفوق كل القضايا هي إلهاب جمرة الرغبة في إحياء الآخرين مرة أخرى في أرواح أفراد الأمة، وفرز الأفكار الغريبة المندسة بين "الأمة" وأهدافها السامية.. ومن بعده، تحريك طاقتها التي تبدو خامدة، وحثها على السير نحو هدفها التاريخي من جديد بتحفيز جيد، وبأنشطة وفعاليات منضبطة ومنظمة.

تعتري طبع الإنسان. فأحيانا تولِّد أمورٌ شروخاً واسعة في حياتنا الفكرية وفي حركتنا وعملنا الحركي، مثل تصرفات الزعماء والمرشدين التي لا توحي بالثقة فتُوجِد التذبذبَ والشك، أو مثل ضعفِ قدراتهم وأهليتهم، أو ضيق أفق المثقفين أحيانا إلى درجة العجز عن رؤية مواطئ أقدامهم، بله إبصارهم لمواقع نقل الأمة إلى آفاق جديدة، أو ضعف الأمة عن الإحاطة بواقع حالها أو نقص التحفيز، أو تقديم التفكير الميكافيلي والبراغماتي أمام القيم الدينية وقيم الأمة. ونحن الآن في مواجهة سلسلة من الأزمات المختلفة الناشئة من بيئة مفعمة بهذه المحاذير جميعاً. وحالنا يوحي بإمكان انفلات الذات وإرسالها، والوقوع في تبعثر وتشتت يؤدي بنا إلى الانحلال والذوبان. ولا شك أن هذا يثير شهية العدو، ويخذل حماس الصديق. بل المهولُ هو احتمال أن نُصرَع ونسقط -حفظنا الله تعالى- إذا تماهلنا في سد الثغرات العقلية والمنطقية والعاطفية المتوسعة في حياة الأمة. وحتى نجنِّب أمتنا من الفظائع والفواجع التي لا مفر منها في حال سقوطنا، فمن الضرورة والحتم أن ننسلخ ونتزحزح تماماً عن التيه في انعدام الهدف، وقابلية الانصياع للاستعمار والاستغلال، ونفسية العيش تحت الوصاية، وهي الحالات اللاصقة بدول العالم الثالث... فنتشبث بالسعي مستعينين بالله تعالى، ونستهدي التوفيق الإلهي في وحدة الأمة وتوافقها، ثم نركز على كينونتنا الذاتية ونتعقب أهدافنا وغاياتنا السامية.

ومن الظاهر عيانا وبيانا، أننا لن نتغلب بمشاريع سبق أن تعودناها، على كل هذه السلبيات في مرحلة عاصفة تواجهنا فيها مهاوٍ سحيقة متشابكة، وجسور منهدة وطرق منقطعة، وبأمة متعبة بمحن متنوعة لم نشهدها في تاريخنا إلا قليلا. إن مثل هذه الأحوال غير الاعتيادية، تستدعي هِمماً حميّات تتجاوز الهمة والحمية الإنسانية، وطاقة تعلو فوق ما هو معتاد. وقد تكون هذه الأحوال المدلهمة أحيانا ميلاداً تاريخيا للأمم، بمخططاتها، ومشاريعها، واستراتيجياتها، وعقولها الممتازة التي تنتج هذه المطلوبات، وممثليها الأبطال الذين تخلّوا عن أن يحيوا أعمارهم، فنذروها لإحياء غيرهم.

ولذلك، نؤمن -في هذا الوقت الذي نرجو فيه أن نكون أمة عظيمة- بضرورة منهج ومشروع بعقلية محترفة ومتخصصة، بل قبل ذلك، بضرورة إعداد أجيال مثالية تحلم وتستهدف لإنشاء أمة عظيمة. إنَّ تحقيق هذا الفكر بدرجة معينة، وإنْ كان في دائرة صغيرة، وظهورَ نماذجه في آلاف الأبطال الذين تركوا دُورهم وأوطانهم مهاجرين كأمواج البحر إلى أرجاء الأرض المختلفة، بروحية الكفاح الوطني (حرب الاستقلال)، وسعيَهم في زرع فسائل روح الأمة في كل مكان، ووضعهم اللبنات الأولى لثغور حلم المستقبل الكبير في جهات الأرض المختلفة، وعرضَهم لعالمهم الروحي والمعنوي حيثما حلّوا، وكدّهم من أجل إبراز موقع أمتنا الموروث من أعماق التاريخ لتملأ مقعدها الشاغر اللائق بها في التوازن الدولي، ونجاحهم في كل ذلك بقدر معين، هي أمثلة شاخصة ومهمة، تُرينا ما يمكن أن تفعله الأجيال التي تعلق قلبها بفكر سامٍ إلى حد العشق.

وإن هذه الكوادر "المحتسبة" التي قد تجوع أحيانا وتعطش أخرى، لكنها تتدرع دوما بالإيمان والأمل والعزم، وكأنهم المعنيون بوصف محمد عاكف: "مستعينون بالله، متشبثون بالسعي، مشدودون إلى الظفر"، هؤلاء حلّوا بحملة واحدة، وبنفخة واحدة، معضلات تعجز دول كبيرة أن تحلها بأنشطة "لوبياتها" وصرفها الملايين على إعلاناتها. وينبغي أن لا يستهان بهذا "التكوين" الباهر، ولا يعلَّل بسلسلة الصُدَف، ولا يُربط بمكانة

الدول المهاجَر إليها. بل السـر في هذه الحركة الرائعة هو توجه القلوب المخلصة إلى الله تعالى، ومَنُّ الله تعالى بزيادة الإحسـان علـى هذه الأمة التي توارثت العز من أعماق تاريخها. نعم، يناط النجاح في هذا العمـل -كما في كل نجاح- بالهمة والحمية من الصدور النابضة بالإخـلاص، وبالوفاء من الأمة، وبالتوفيق من الله تعالى. إن الأبناء المضحين اللائقين بهذه الأمة الوفية، يهرعون أفواجا باسم وطن المستقبل الكبير إلى الغربة والحسرة والحرمان، وفي أيديهم مشـاعل العلم والعرفان، كالذيـن يتَحَدَّون اليأس والعجز في أشـد محن التاريخ، وكالحمـلات الباهرة المتدفقة في تدفـق فجائي، والمترعرعة بجلوات الغنى والوجود على الرغم من الفقر والعدم، وكالجيوش المتقدمة إلى الموت في سرور وانشراح، على وقع الأناشـيد الوطنية، على رغم أنـف التضييق والافتراء والاتهام مثلما يحصل اليوم. هؤلاء يوفون منذ سـنوات من غير توان أو فتور، برسـالة مهمة لحساب أمتنا وشعبنا وبلدنا، ونبعُ قوتهم التي لا تنفد هو إيمانهم، ووقودُ مشـاعل عشقهم وحماسهم الذي لا يخمد هو هدفهم السامي وفكرهم وروح الأمة.

إن الذين يجهلون أهمية هاتين المقومتين الحيويتين، ولا يعقلون القـدرة التي يوجدها الإيمان والأهداف السـامية في الإنسـان فيتسـاءلون في شـك ممزوج بالحقد والبغض أحيانا، وفي رفض غاضب متشـرب بالهذيان أحيانا: "كيـف يحصل هذا كله؟ ما مصلحتهم في هذا؟" يفضحون أنفسهم ويظهرون مدى حرمانهم من الأهداف والأفكار السامية.

ومن المسـلّم به، أن الفكر والهدف السـامي نشـيد يحرك الأجيال المثالية، و"مولِّد طاقة" يشـحن طاقتهم الدائمة، ومنبع صافٍ يمد عشـقهم وحماسهم، وبمشاعر طافحة يرفع إلى السماء نـداء مصيرهم. وبفضل هذا الفكرالسـامي، تصل المسـاعي المتوسعة باطراد إلى حد التحول إلى حركة مشتركة، وإلى جذور ومستويات مختلفة، وبطبيعة الحال إلى نسق مختلف، فيكون حتما عليهـا أن تجد مجرى لتيارها حتى إن اضطرت إلى اجتياح القمم، لمواصلة المسيرة.

ففي عصورٍ تخبط الإنسـانية في الظلمات، كان أهم مصادر القوة لتلك الثلة من المجاهدين الأوائل المنبثقة من صدر الصحراء هو إيمانهم وغايتهم المأمولـة في تفريغ إلهامات إيمانهم الفوارة في قلوبهم أبـدا إلى صدور الآخرين. فبحملـة واحدة بدلوا مصير الدنيا من النحس إلى السعد، وبنفخة واحدة صاروا صوت الأمل ونَفَسـه في ثلاث قارات. وكانت المقومـات عينها وراء الأمل العثماني الكبير، فهي التي اسـتنهضت عشيرة من هضاب آسيا، ودفعتها للسـير إلى الأناضول، لتقيم دولة عظمى... وأيضا هي التي كانت في عقول أبطال الكفاح الوطني (حرب الاستقلال). وكذلك جموع الهند الذين لم يبدُ على سيماهم أمارات الحياة في أواسـط القرن العشرين، فحركهم إلى الحرية والاستقلال حماس عظيم؛ كان أساس قوته إيمان ذلك الشعب وأمله، وفكرة أن يحيوا ويبقوا بذاتهم ومقوماتهم.

لكن ينبغي أن يكون الهدف السـامي، الذي يلهب الحماس في صدور الناس ويدفعهـم إلى التحرك، هدفا منضبطا بضوابط معينة، ومرتبطا بنظام معين. فإن كنتَ مهندسـاً، فعليك أن تُعِدّ العدّة قبل البدء بإنشاء صرح، فتتفحص متانة عناصره وسلامتها، وانسـجام آحادها فيما بينها ومشـاركتها في جماله ومظهره. وهل يتحقق الكمال من غير توافر التوافق والمواءمة والانسـجام في الأجزاء كلها!؟ إنّ الهمـم والحملات الفردية، إنْ لم تنضبط بالحركة المشـتركة ولم تنظم تنظيماً حسنا، ستؤدي إلى تصادم بين الأفراد لا محالة... فيختل النظام، وتنهض كل حملة في عكس اتجاه حركة أخرى، وتُنقص كل عملية من قيمة الناتج حتى يقرب من الصفر، كما في حاصل الضرب لكسـور الأرقام ببعضها في الحساب. وكما أشرنا سابقا، ينبغي أن لا تُطفأ جذوة طاقةٍ فردية البتة، باحتسـاب ضرر قد تسببه. بل على العكس، تجب العناية الرفيعة حتى لا تهدر ذرة واحدة من تلك الطاقة، وتوجَّه إلى مجرى الغاية المأمولة المعينة والهدف المنشـود، ويزاح خُلُق المصادمة في النفوس ويقَرَّ عقل التوافق بدلاً عنه، بل الأحسـن أن يُطَبّع كل إنسان بهذا الطبع.

وقـد لا نجانب الصواب إن قلنـا: إن الأديان كلها جاءت لتثبيـت هذا الفهم خاصة، ضمن أبعاد تبليغاتها الشاسـعة؛ فقد فَـرض كل دين ضوابطَ وأنظمة على القدرات الفردية، فصارت مقومـات مهمة في توجيه القوة الموجودة المنشـدّة إلى حضارة جديدة وعمران جديد. فبإرشـاد الديـن يوازن كل فرد حريته وفعالياته الشخصية، مع حركة المجتمع وفعالياته؛ فيتصرف حراً موفيـاً إرادته حقها من جهة، ومحافظـاً على تكامل الحركة مع الآخرين من جهة أخرى، فينجح في تحقيق الأمرين معاً، كالنجم التابع في موقعه، يدور في فلكه حول مركز الجذب، وحول نفسه في الوقت عينه. ولا يغترنّ أحد بحيوية الحركات ونشـاطها كلاً



ينبغي أن يكون الهدف السامي الذي يلهب الحماس في صدور الناس ويدفعهم إلى التحرك، هدفا منضبطا بضوابط معينة، ومرتبطا بنظام معين. فإن كنتَ مهندساً، فعليك أن تُعِدّ العدّة قبل البدء بإنشاء صرح، فتتفحص متانة عناصره وسلامتها، وانسجام آحادها فيما بينها ومشاركتها في جماله ومظهره.

على حدة مهما بلغت، إن لم ترتبط أجزاء التكامل والتوازن بمنظومة أقوى وأمتن؛ فربما لا تسند بعضها بعضاً في خط المقصود العام، فتتولد أحياناً نتائج أشد سوءاً من السكون والجمود. خلاصة القول: إن السكون والجمود، كذلك الفوضى في الحركة، كلاهما موت. والمحتوم على الأمم التي تضعضعت نفوسُ أفرادها بمثل هذا الموت، أن تُغلَب وتُطرَد إلى خارج مسرح التاريخ.

ومن دوافع الميل إلى التحرك الفردي في الإنسان الأنانية، وثقة الإنسان بنفسه، وقصور فهمه لحدود قدرته، وقصور إدراكه لمدى تأثير روح التوحد والتجمع والفعاليات المشتركة والوفاق والاتفاق في جلب العناية الإلهية. كذلك، قد تتسبب الشهرةُ والمنصب والطموحاتُ الشخصية والنوازع الأخرى في تقدُّم الملاحظاتِ الفردية إلى الصف الأمامي. وقد يظهر بمثل هذه الملاحظات منحوسون نسوا مقاصدهم وبيئتهم تماماً، وخنعوا لمطالب الأكل والشرب والنوم وطرح الفضلات، بعدما كانوا في صف الخدمة-الدعوة يهتفون: "في سبيل حب الدعوة!" ويلهثون بأنفاس تتقطع شهيقاً وزفيراً طلباً لرضا الله تعالى. إن من ينسى المقصود، ويُضيّع الغاية المنشودة، سيسقط -بالضرورة كائنا من كان- في شباك الأنانية، وتحل رغباته الجسمانية محل عشق الخدمة-الدعوة، وتنطفئ عنده مشاعرُ العيش من أجل الآخرين.

من هذه الزاوية، يمكن القول بأن قضيتنا الكبرى التي تفوق كل القضايا هي إلهاب جمرة الرغبة في إحياء الآخرين مرة أخرى في أرواح أفراد الأمة، وفرز الأفكار الغريبة المندسة بين "الأمة" وأهدافها السامية.. ومن بعده، تحريك طاقتها التي تبدو خامدة، وحثها على السير نحو هدفها التاريخي من جديد بتحفيز جيد، وبأنشطة وفعاليات منضبطة ومنظمة. ومن الضروري لمثل هذه الحركة تجديد معالم المساحات المشتركة التي تعد محوراً لحركة المجتمع المشتركة بكل شرائحه بدوا وحضراً، ومثقفين وحرفيين، ومعلمين وطلبة، وخطباء ومستمعين... مساحات مشتركة وقواسم مشتركة مثل السعي لجعل أمتنا عنصراً مهما في التوازن الدولي، والعزم والإصرار على حمل الرسالة بلا فتور مهما كان ثمن التضحيات، والتركيز على أولوية الفكر، وموازنته مع مشاعر روح الأمة، ومن ثم منع حصول الثغرات العقلية والمنطقية والحسية أثناء التحرك الجماعي، واحتساب عشق الحقيقة، والتوق للعلم والبحث وسائلَ للسمو العمودي إلى الله تعالى، وتغذية المجتمع بهذه المفاهيم دائماً.

ومن هذا المنطلق، نحن نؤمن بأن الأشخاص الذين يتقاسمون هذه الأهداف والغايات السامية سيحافظون على حماسهم وحيويتهم، وستجرى الفعاليات والأنشطة الجماعية بانسجام ووئام، وسيستفاد من الوقت والإمكانات بأجدى وسائل التحفيز السريعة، وستبقى أبواب التجدد مفتوحة أبدا بفضل السماح للتفكير بالتوسع.

ولتحقيق هذا كله، لا حاجة إلى تلقين المسلم فهما جديداً للإسلام، ولا إلى إعادة تعليم الإسلام للمسلمين من جديد. وإنما المطلوب العمل على تفهيم المسلم الأهمية الحيوية لما يعرفه عن الإسلام فعلاً، وقوة تأثيره، وديمومته الأبدية. لكن المؤلم حقا أن الأقوال في هذه المسألة مختلفة اختلافاً بيناً إلى درجة تحير العقول... فهوى الرغبات يتقدمُ العقلَ ويقيم في ظل الخيمة الإلهية، والأحاسيس تصدر أحكاما من فوق عرش المنطق. ونحن نعرف هذا الانحراف في نفر من محترفي الإنكار والإلحاد والكفار المدمنين على التحرش بالدين، لكن قد يقع فيه أيضا بعض المتعصبين المحرومين من الحياة القلبية والروحية من الذين يحسبون أنفسهم متدينين. هذان الصنفان مختلفان فيما بينهما، لكنهما كفرسي رهان في الإضرار بالأمة والوطن والدين.

الصنفان كلاهما لا يوقر روح الدين، وكلاهما لا يتسامح في التفكير الحر، وكلاهما مختوم على قلبه، فلا يَعي فكرة المشاركة والتقاسم. رأس مالهم الأعز هو الفرية والزور والتشويه، وأجود فنونهم هو النميمة واللمز على من لا يحسبونه منهم... لا يهمهم إلامَ يلجؤون، ولا على من يستندون؛ فالمهمّ أن يهضموا ويأكلوا من لا يستسيغون وجوده. والحقيقة أن حرصهم وسعيهم في هذه المسألة عظيم وحثيث إلى درجة أظن أنهم لو صرفوه فيما يليق لعمّروا العالم كله.

وبدهي في هذه الأجواء المظلمة الخانقة، وفي ميدان الذين لا يفكرون ولا يبصرون ولا يعلمون، لن توجد الحياة الفكرية والعشق إلى الحقيقة والتحري في سبيل العلم والبحث... وإن وجدت، فلن تنمو وتتطور، وإن نمت وتطورت فلن تغادر عالم الأحلام والفانتازيا. وإنّ حالنا المنكسر البائس شاهد على ما نقول بألف لسان، وليس بلسان واحد.

لكن الحال يقتضي في الواقع أن تكون عقلية أمتنا عقلية إعمار وإنشاء... وأن ننجو من هذه الحالة التي نتخبط فيها والتي نعاني فيها من فقر التفكير وغياب الأهداف. ونحن اليوم بحاجة ماسة -قبل كل شيء- إلى غاية مأمولة سامية بعيدة المرام، هي انبعاثنا برؤيتنا الحضارية وبثقافتنا الذاتية. ولابد لأمتنا أن تصبر على أوجاع وعذاب وزمانٍ يسلب العاقل عقله ويدع الحليم حيران، من أجل الارتقاء إلى العلياء كصرح سامق يرتكز على أركان القيم التاريخية لأمتنا.

إنَّ مراعاة سير تطور الحوادث ضمن طبائعها، تتعلق بسعة المعرفة بهذه الطبيعة. القرآن الكريم يخاطب سيدنا ﷺ فيقول: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً لاَتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾ (التوبة: ٤٢)، فيُسَرّي عنه ﷺ ويُوبّخ المتخلفين المتهاونين في الطريق.

وحسب المنظور الإسلامي، يُعَدُّ المقصود حاصلاً بنوال الهدف البدهي لكل حركة أو حملة، وهو رضى الله تعالى. فسواء بعد ذلك إن تحققت نتيجة الخدمات المقدمة باسم أمتنا بارتقائها إلى المكان اللائق بها في التوازن الدولي، أو لم تتحقق؛ فإن المؤمن يسعى لنوال رضاه تعالى في كل خدمة إيمانية وكل فعالية دعوية. فبهذه النظرة يتحول غيرها من الأهداف إلى أهداف إضافية واعتبارية، ومحض وسائل تؤدي إلى الهدف الحقيقي. ■

(*) الترجمة عن التركية: عوني عمر لطفي أوغلو.



مسارات العمران من خلال القرآن



أ.د. زيد بوشعراء *

أن تعمر جماعة من الناس بقعة من الأرض معناه أن تحولها إلى مكان حي مستجمع لمقومات الحياة الجماعية المنظمة المنتجة الآمنة المستقرة. وذلك بما تؤسس فيه من أنواع البنيان الذي يجلب لها وينمي كل ما تعتقده مصلحة، ويدرأ عنها ويزيل كل ما تظنه مفسدة من مساكن وأحياء وأسوار وحصون وقناطر وطرقات وأسواق وبساتين وسدود ومصانع وحمامات.. ونحو ذلك من المرافق الحيوية اللازمة لأي تمدين، وكذا بما تنمي فيه من نسلها ووجودها البشري ومواردها الحيوانية والزراعية. ويلحق بذلك مجازاً ما كان من أسبابه من العلم والتخطيط والتنظيم والقوة،

وما كان من ثمراته من قدرة على صناعة الأجهزة التي يحتاج إليها العمران والحياة العمرانية وما إلى ذلك.

كل ما أنجزه الناس قبل مجيء الإسلام، مما كان من هذا القبيل وبهذا القدر، القرآن عده عمراناً. وقد تفاوتت الجماعات البشرية فيه كمًّا ونوعاً بحسب تفاوتها فيما أوتيت من الخبرة الفنية والعلم الدنيوي والقوة السلطانية، فمنها من كانت أكثر إعماراً كما قال الله تعالى: ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾(الروم:٩)، وفيه إشارة إلى أن الـ"أشد قوة" كان أكثر إعماراً. ومنها من بلغ العمران عندها الذروة في الجمال والتنوع فكانت فارهة بارعة في صناعة العمران. وقد أشار القرآن إلى ذلك في عدة مواطن منها قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ﴾(يونس:٢٤)، وقوله تعالى: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾(الأنعام:٤٤)، وقوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾(النمل:٢٣)، وقوله في بعض الأمم إنها كانت: ﴿أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا﴾(مريم:٧٤)، أي يعيشون في حال أفضل من حال العرب أجود تجهيزاً وأحسن منظراً من الناحية العمرانية.

ووصف القرآن لأعمالهم تلك بأنها عمارة للأرض لا يلزم منه أن ما عداه ليس من العمران، بل كل إنجاز حضاري لاحق جعلت به المجتمعات حياتها آمن وأسهل وأجمل وأرفه مما هو ثمرة لتطور علومها وخبراتها وقدراتها وأذواقها هو أولى شيء بالدخول في مفهوم العمران.

وإن عد القرآن إنجازات غير المؤمنين عمراناً يعني أن مفهوم العمران مفهوم محايد وأنه لا يشترط في تسمية الشيء عمرانا أن يكون سالما من المكدرات الفكرية والأخلاقية. وإن كان العمران بعد ذلك قابلاً لأن ينعت بالصلاح أو بالفساد.

على أن هذا العمران ما كان الإنسان لينجز منه شيئاً لولا أن الله تعالى هيأ له أسبابه.

تهيئة الله لأسباب العمران

هيأ الله للإنسان كل ما يتوقف عليه العمران.

أ- جعل في الأرض قابلية للعمران: فجعلها أولاً صالحة لاستقبال ما يمكن أن يحدثه الإنسان من العمارة، وذلك بما ألقى فيها من الجبال التي تحفظ استقرار قشرتها: ﴿وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾(النحل:١٥)، وكذلك بما قدر فيها من الجاذبية التي تثبت البنيان، فكانت بذلك قراراً: ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا﴾(النمل:٦١)، ولولا ذلك ما استقرت على الأرض لبنة فوق أخرى.

وجعل الأرض أيضاً طوع إرادة الإنسان ذلولا له صالحة لإنتاج ما يحتاج إليه: ﴿وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ﴾(فصلت:١٠)، ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾(الملك:١٥).

ب- يسر الله للإنسان حركته في الأرض: فجعل النجوم للإنسان علامات يهتدي بها في ظلمات البر والبحر: ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾(النحل:١٦)، ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾(الأنعام:٩٧).

وهيأ للإنسان المركب الذي يحمله ويحمل أثقاله إلى أبعد المواطن؛ هيأ له المركب الطبيعي الذي هو الدواب: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ۞ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾(النحل:٧-٨)، وهيأ له المركب الصناعي وهو السفينة التي صنعها نوح عليه السلام بوحي من ربه سبحانه فكانت أول سفينة في تاريخ البشرية: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾(المؤمنون:٢٧). وهذا يعني أن حركة الإنسان في الأرض يسرها الله بخلقه وبوحيه معاً فحمله برا وبحراً: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾(الإسراء:٧٠).

وبيّن أن حمله إياهم كان بالمركبين المذكورين فقال في الأنعام: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾(غافر:٨٠). وبذلك استطاع الإنسان في وقت مبكر من وجوده على الأرض أن يخرج من العزلة ويكتشف الأرض كلها قاراتها وبحارها ويستفيد مما جعل الله له فيها من زينة وثروات.

جـ- جعل الله في الأرض الحديد، أنزله من السماء، ليكون للإنسان وسيلة من أهم وسائل إنشاء العمران وحمايته: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾(الحديد:٢٥).

د- وبالجملة فقد سخر الله له سائر ما في الكون ليوظفه لمصلحته إنشاء لها وحفظا وتنمية وتطويرا: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾(الجاثية:١٣).

هـ- وجعل الله الإنسان مهيأ لإنشاء العمران:

• خلق الله في الإنسان حاجات وشهوات تدفعه إلى إشباعها وتلبيتها فينتج عن السعي لإشباعها إعمار الأرض.

• وخلق فيه ذوقا وإحساسا بالجمال يتمكن به أن يضفي مسحة من الحسن والبهاء على عمرانه.

• وخلق فيه عقلا يقدر به على اكتشاف الكون وقوانين الحياة واكتساب العلم الذي بموجبه يستطيع التخرك في أرجاء السماوات وتسخير ما في الكون لعمارة الأرض: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ فَانْفُذُوا لاَ تَنْفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ﴾(الملك:٣٣).

• وخلق فيه قدرة بدنية يستطيع بها تحمل أتعاب الإعمار ومشاق تحقيق المصالح.

و- ولما كانت مصالح الإنسان كثيرة لا يستطيع تحقيقها وحده فقد جعل الله بين الناس تفاوتا في القدرات وتنوعا في المواهب يحتم اختصاص كل صنف وطبقة منهم في نوع من العمل، ويجعل بينهم تكاملا في الوظائف الحياتية: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾(الزخرف:٣٢)، ولولا ذلك ما كان ثمة إمكان للعمران.

ز- و لما كان العمران لا يتم إلا بالتنظيم وكان التنظيم لا يتم إلا بالملك، فقد جعل الله في الناس قبولا للملك، وهو تدبيرهم لأمورهم تحت قوة سلطانية قاهرة تجلب لهم مصالحهم العامة وتدرأ عنهم شرور أنفسهم وشرور سواهم.

هذه أهم أسباب العمران، وهي أسباب ضرورية وليس للإنسان يد في إيجادها ولا يملك أن يدعي ذلك، بل لما جاء الإنسان إلى الوجود وجد الله قد أعد له كل شيء؛ المواد والدوافع والأذواق والقدرات والعقل والسنن الكونية والسنن الاجتماعية.. وإنما بقي له بعد ذلك أن يوظفها توظيفا تركيبيا، ويستثمرها في إنشاء ما يقدر عليه من العمران في كل زمان ومكان. وبذلك كان الإنسان -المؤمن والكافر سواء- عامرا للأرض وهو ما يدل عليه قوله تعالى على لسان صالح: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾(هود:٦١).

لما كان الإنسان بطبيعته قد ينزع إلى الخير وإلى الشر ويدرك بعض مصالح نفسه دون بعض، فإن ما آتاه الله من أسباب العمران تلك كان منذ البداية محتملا لأن يوظفه الإنسان في الشر ولأن يوظفه في الخير، كما كان غير كاف لتلبية كل حاجات الإنسان. ولذلك فإن الله تعالى إلى جانب ما قدره للإنسان من أسباب، قد زوده منذ خلقه بما يجعل عمرانه عمرانا صالحاً، فأرسل إليه رسله بالهدى الذي يؤهله لتسخير تلك الأسباب في تلبية كل حاجاته المشروعة، ولتحقيق السعادة التامة الشاملة التي علمها وأرادها له خالقه اللطيف الخبير وبارئه الرحيم الودود، إلا أن بني آدم لم يستجيبوا كلهم لهذا العرض، فافترقوا في موقفهم من الوحي إلى فريقين فسار العمران بذلك مسارين:

المسار العمراني الأول

سار العمران مساراً مادياً أجوف مختلا لما أشرف عليه فريق من بني آدم اختاروا أن يأخذوا بأسباب العمران بعيدا عن هدى الله، وأصروا بعد نزول الوحي إليهم أن يبقوا متعاملين مع أسباب العمران الميسرة لهم تعاملا حراً لا يتقيد بأي قيد من دين.

هذا الفريق من الناس لم يؤمن بالله واليوم الآخر وجعل الدنيا همه الوحيد ومبلغ علمه وغاية سعيه، وتوسل بأسباب العمران لنيل شهواته (شهوة المال وشهوة النساء وشهوة الجاه)، ومع ذلك لم يحل الله بينهم وبين ما يشتهون، بل فسح لهم المجال ليحققوا لأنفسهم ما يظنون أنه سعادة وخلى بينهم وبين أن يذوقوا نتائج اختيارهم العمراني.. ذلك ما قضاه الله في الأزل وذكره في كتابه فقال: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾(الإسراء:١٨)، وقال: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ﴾(هود:١٥)، بمعنى أن من أحب نيل مآربه من غير واسطة الدين ومن غير تحمل لأي كلفة دينية لا يؤمن بها، فإن الله تعالى يحقق له ما يتمناه كاملا غير منقوص. وقد سرد القرآن من هذا المسار نماذج منها:

النموذج الأول: هو عمران "عاد" الذي أشار القرآن إلى أبرز مظاهره فيما حكاه من قول هود لـ"عاد": ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ۞ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ۞ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ۞ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ ۞ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ۞ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ۞ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾(الشعراء:١٢٨-١٣٤)، وقوله لهم أيضاً: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾(هود:٥٢)، وهكذا فقد عرف "عاد" عمرانيا بما يلي:

• بناء علامات تدل على الطريق ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً﴾.

• بناء صهاريج تجمع ماء المطر في الشتاء يشرب منها المسافرون وينتفع منها الحاضرون في وقت قلة المطر ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾.

• تنمية الموارد البشرية والحيوانية والزراعية ﴿أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ۞ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾.

النموذج الثاني: هو عمران "ثمود" المشتهر بالبناء المتميز، قال لهم صالح: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلاَءَ اللهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾(الأعراف:٧٤).

وقال لهم أيضا: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ * وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾(الشعراء:١٤٦-١٤٩). فقد كانوا فارهين بمعنى عارفين حذقين بنحت البيوت من الجبال بحيث تصير بالنحت كأنها مبنية. نحتوا في الجبال بيوتا يسكنونها في الشتاء هروبا من أخطار السيول، واتخذوا في السهول قصوراً ينزلون للسكن بها صيفاً.

النموذج الثالث: هو عمران "سبأ". فلقد كانت مدينتهم "مأرب" محفوفة بالجنات عن اليمين والشمال يصطافون فيها ويستثمرونها، وكان ذلك بسبب تدبير ألهمهم الله إياه في اختزان المياه النازلة في مواسم المطر بما بنوا من السد العظيم في "مأرب"، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾(سبأ:١٥).

النموذج الرابع: هو عمران "مدين" المشتهر بالرخاء الاقتصادي حتى قال لهم شعيب: ﴿إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ﴾(هود:٨٤)، أي إنكم في حال حسنة تجعلكم في غنى عن التطفيف.

هذا ويذكر القرآن في مواطن أخرى أنواعاً عامة من العمران دون أن ينسبها إلى أقوام بعينهم، فيذكر أن الله فتح لأمم كل أبواب التنعم: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾(الأنعام:٤٤).

كما يحكي أن الله آتى أقواماً الأمن من أعدائهم والرخاء في اقتصادهم: ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾(النحل:١١٢).

ولقد كان وحي الله عبر التاريخ، يتتبع عمران هؤلاء الأقوام من جهتين اثنتين؛ من جهة أولى كان يبدي لهم ملاحظاته النقدية إزاءه، ومن جهة ثانية كان يدلهم على العمران الذي هو أرشد.

فقد كان رسل الله -عليهم السلام- يقبحون عمرانهم من حيث ما تأسس عليه من دوافع بعيدة عن الرشد وما شابه من شوائب الكفر بأنعم الله، والظلم لعباد الله والفساد في أرض الله، ويطلبون منهم تخليص عمرانهم منها. ثم كانوا في المقابل يعدونهم إن هم استجابوا أن يحفظ الله عليهم عمرانهم ويزيدهم من أسبابه ويبارك لهم فيه، وبعبارة أخرى كانوا يعرضون عليهم عمراناً أفضل من عمرانهم.

فعلى سبيل المثال، ما بنته "عاد" من علامات على الطرق خارج مدنها، كان عملا عبثياً لم تدع إليه حاجة للمسافرين، ولعلها إنما أرادت به أن يكون آية دالة على تفوقها ومبلغ قدرتها ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾.

وما اتخذته "عاد" أيضاً من صهاريج يتجمع فيها ماء المطر كي تستعمله في مقاومة الفناء زمن القحط، قد أخطأت به الظن وضلت الطريق وضيعت الجهد والمال، واستبدلت الذي هو أدنى بالذي هو خير، لأن الماء الذي أمسكوه إنما هو ماء آسن ليس بالعذب، وقليل لا يمكن أن ينفع كل الناس ولا كل الأرض. بينما كان يمكنهم -لو استجابوا- أن يحصلوا على ماء السماء الذي هو ماء طهور ومبارك، ويرزقوه بالأقدار الكافية وفي الأوقات المناسبة والأراضي المحتاجة، ويعطون معه قوة إضافية تجعلهم أكثر إعماراً وأمناً، وقد قال لهم هود: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾(هود:٥٢).

وكذلك ما نحتته "ثمود" من البيوت في الجبال فإن القرآن سجل عليه ملاحظتين؛ إحداهما تنصيصه على حذقهم في ذلك النحت: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾(الشعراء:١٤٩)، وثانيهما ذمه لباعثهم وهو اعتقادهم أن لجوءهم إلى هذه الوسيلة سيؤمنهم من كل الأخطار: ﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ﴾(الحجر:٨٢)، لكن ذلك لم ينفعهم: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾(الحجر:٨٣).

ومن عمروا الأرض رافضين للوحي غير قابلين لعروض الأنبياء تنوعت مصائر عمرانهم:

المصير الأول هو تدمير العمران. وقد يدمر على من تحته إذا كان بنيان قوم مكروا لدين الله وأنبيائه، وفيه قال الله تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ﴾(النحل:٢٦)، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(يونس:٢٤). وحصد الزرع؛ قطعه من منابته وهو معنى الاستئصال والتدمير للعمران بما يظن به الناظر كأن الأرض لم تعمر من قبل: ﴿كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ﴾. لم تعمر بالزرع، يقال غني المكان إذا عمر ومنه المغنى للمكان المأهول.



فقال في سبأ: ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾(سبأ:١٦).

المصير الثاني هو إخلاء العمران. فيصبح خربا معطلا عن منفعته التي شيد لأجلها، بحيث يهلك الله صانعي العمران ويدر عمرانهم غير مستعمل من بعدهم. وهذا مصير عمران من استعجل عذاب الله، وأمن مكر الله واستهزأ بآياته، ومثاله ما جرى لـ"عاد" الذين أرسل الله عليهم ريحا: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لاَ يُرَى إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾(الأحقاف:٢٥).

ومثاله أيضاً ما جرى لـ"ثمود" كما قال الله تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾(النمل:٥٢)، ومثال أقوام آخرين ممن طغوا في أرض الله وقال فيهم الله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾(القصص:٥٨).

المصير الثالث هو إيراث العمران لغير صانعيه وهو مصير عمران الناكثين لعهودهم. ويمثل له القرآن بمصير بني قريظة من اليهود الذين خانوا عهدهم مع الرسول محمد عليه الصلاة والسلام وقال فيهم الله: ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ۞ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾(الأحزاب:٢٦-٢٧).

وقال عن فرعون وملئه: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۞ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۞ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ۞ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾(الدخان:٢٥-٢٨).

على أن سنة الله قد جرت بأن لا يصير الذين ظلموا ولا يصير عمرانهم إلى إحدى هذه المصائر الثلاث، إلا بعد إنذار يتبعه إملاء كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ لَهَا مُنْذِرُونَ﴾ (الشعراء:٢٠٨)، وقال: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾(الحج:٤٠).

ويشمل إملاء الله لهم أن يسلط عليهم البأساء والضراء لعلهم يرجعون، ثم أن يمتعهم إلى أجل مسمى إذا تمادوا في غيهم تنفيذا لوعده بأن لا يحرم مريدي الدنيا من الدنيا كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ۞ فَلَوْلاَ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۞ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ۞ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(الأنعام:٤٢-٤٥).

المسار العمراني الثاني

لو شاء الله تعالى لجعل العمران إنجازاً خاصاً بالكافرين ولكنه أبى، لأنه قصد أن يبقى في الأرض إيمان. ولو أنه فعل لاعتقد الناس أن لا عمران إلا مع الكفر، ولتركوا الإيمان جملة، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلاَ أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ۞ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ﴾(الزخرف:٣٣-٣٤).

قال ابن عاشور تعقيباً على تفسير ابن عباس للآية: "ولولا أن يصير الناس كفاراً لخصصنا الكافرين بالمال والرفاهية، وتركنا المسلمين لما ادخرنا لهم في الآخرة، فيحسب ضعفاء العقول أن للكفر أثراً في حصول المال جعله الله جزاء لمن سماهم الكافرين، فيتبعوا دين

الكفر لتخيلهم الملازمة بين سعادة العيش وبين الكفر. وقد كان الناس في الأجيال الأولى أصحاب أوهام وأغلاط يجعلون للمقارنة حكم التسبب. ولذلك كان للمؤمنين أيضاً عمرانهم لينفصل العمران عن أن يكون ثمرة كفر أو إيمان. ومن ثم قال الله تعالى: ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَـؤُلاَءِ وَهَؤُلاَءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ۞ انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾(الإسراء:٢٠-٢١).

فقد سار العمران إذن مساراً ثانياً، إلا أنه كان مسارا راشداً. لأنه كان بقيادة "قوم عابدين" اتبعوا هدى الله وجعلوه دليل إعمارهم ومنهاج تدبيرهم. ومما حكى القرآن فيه من النماذج نموذج عمران سليمان عليه السلام ونموذج عمران ذي القرنين..

أما سليمان عليه السلام فقد أوتي علم الحضارة والعمران، وهو ما يشير إليه قوله تعالى على لسان ملأ سليمان: ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾(النمل:٤٢). قال ابن عاشور: "أرادوا بالعلم علم الحكمة الذي علمه الله سليمان ورجال مملكته ويشاركهم بعض أهل سبأ في بعضه، فقد كانوا أهل معرفة أنشأوا بها حضارة مبهتة".

ومع هذا العلم أوتي سليمان من كل أسباب العمران ومظاهره: ﴿وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾(النمل:١٦). وكان مما أوتيه تقدُّم صناعي فائق وإبداع بنائي باهر.

يذكر القرآن من تقدمه الصناعي، أن الله تعالى يسر له إذابة النحاس وإسالته له على نحو دائم من عيون معينة بما يمكنه من صناعة ما تحتاج إليه أمته؛ من الأسلحة والدرق والآنية والأثاث وسائر الأجهزة.. قال الله تعالى: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾(سبأ:١٢).

ومن تقدمه في البنيان تكفي الصورة المثيرة التي ساقها القرآن مقترنة بدخول ملكة سبأ على سليمان: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ﴾(النمل:٤٤).

فقد كانت أرضية الصرح من زجاج سميك تحته ماء فيه سمك، وهذا "من بديع الصناعة التي اختصت بها قصور سليمان في ذلك الزمان لم تكن معروفة في اليمن على ما بلغته من حضارة وعظمة بناء".

وقد حكى القرآن أن سليمان عليه السلام انتقل من طور العمران المتميز بالإبداع والحسن والمتانة والوفرة والمحفوظ بالعدل والمزين بالرحمة إلى طور "ما بعد العمران"، فذكر تشوفه لأن يؤتى أقصى ما يمكن من السرعة في إنجاز الخدمات فقال: ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ۞ قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ۞ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَـذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾(النمل:٣٨-٤٠).

هذا المشار إليه من عمران سليمان -وإن كان بعضه معدودا من خصوصياته- يشير إلى أن ابتغاءه أمر جائز في ذاته، وأن المؤمنين هم أولى الناس بأن ييسر الله لهم امتلاك بعضه أو ما يقاربه من الوسائل المتقدمة المعينة على تحقيق الجودة والبسطة في العمارة، والوفرة والتنوع في الإنتاج، والسرعة والسهولة في الإنجاز.

وأما ذو القرنين فقد زوده الله بأسباب العمران ووسائل التصرف في الأرض فقال: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾(الكهف:٨٤). وقد استعمل ما أوتي من تلك الأسباب في القضاء على الظلم حيثما وجده إما بمعاقبة الظالمين أو بكف أيديهم عن المستضعفين، فجاب الأرض شرقاً وغرباً، لا ليستعبد شعوباً لصالح لنفسه أو شعبه، ولا ليستغل خيراتهم لأجل مجد نفسه أو رفاهية فئته، ولكن ليملأ الأرض رحمة وعدلا كما ملئت عذابا وجوراً لا يسأل الناس خلالها أجراً على اتعابه، بل لا يقبل منهم مقابلا ماليًّا لما يسدي إليهم من النصرة والحماية. ولذلك كانت إنجازاته العمرانية إنجازات نافعة راشدة لا عبث فيها ولا غي. وكان منها توظيفه ما أوتيه من خبرة صناعية وقوة سلطانية في بناء سد منيع من حديد ونحاس يقي قوما ضعفاء من عدوان يأجوج ومأجوج، ويمنع من إفسادهم في الأرض. فكان عمرانه هذا عمراناً وقائياً حمى عمرانا قائماً من تخريب المخربين، وكان إلى ذلك عمرانا جميلا. فقد جاء في بعض الروايات أن السد كان "كالبرد المحبر طريقة سوداء وطريقة حمراء". قال القرآن في عمله العظيم هذا: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ۞ حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً ۞ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ۞ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ۞ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ۞ فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾(الكهف:٩٢-٩٧). ■

(*) أستاذ في جامعة محمد الأول، وجامعة ابن طفيل / المغرب.



الشعـــر في خدمة القرآن

د. محمد جكيب *

حاز الشعر عند أهل الجزيرة عناية خاصة على امتداد مختلف المراحل الثقافيــة. وقد جرى تداوله دون منهج منظم قبل الإســلام. لكن الحاجة الدينية الماســة اقتضت تحول الشعر إلى ثروة لغوية توظف في تفسير القرآن وفهم معانيه.

لقـد أثمـرت الفتوحـات انضمـام غـير العـرب إلى الإسلام، الأمر الذي وسع دائـرة التفاعل مـع القرآن. وتلك حاجة غـير متأتية إلا بمعرفـة اللغـة العربيـة التي يوجد قدر منهـا في الشعر.

كان الشـــعر عند العرب منذ قديم عصوره يتناقل مشافهة اعتمادا على الذاكرة، وكان الناشئ من الشعراء يتتلمذ على شاعر أرسخ قدما، فيختص به ويصبح راويته. وظل الرواة إلى حدود القرن الأول الهجري يتناقلونه اعتمادا على الذاكرة، وكان هذا الفعل مصدرا من مصادر جمعه وتصنيفه. وهو الذي فرض على علماء الشـــعر وضع قواعد صارمة أخضعوا لها الرواة وما يحفظونه ضمانا لمادة أمينة غير محرفة ولا منحولة.

وإذا كان القرن الأول قرن الفتوحات، وتكوين دعائم الدولة وإرســـاء قواعدها، فإن القرن الثاني كان قرن الاستقرار وبناء دعائم الحضارة وانصراف الناس إلى المجهود الفكري والثقـــافي المتمثل في جمع مختلف الآثار المعرفية، والتأمل فيها واســـتخلاص الأصول. و لم يكد القرن الثاني يبلغ ذروته حتى بلغ التدوين أشده، بجهد العلماء الذين قاموا بعمل جليل في إنقاذ الثروة اللغوية، خاصة بعد أن أودت عوادي الزمن بالعديد من حملة هذه المعارف. وإلى ذلك يشير ابن سلام الجمحي في الطبقات بقوله: "فجاء الإســـلام فتشاغلت عنه العرب، وتشـــاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم، ولهت عن رواية الشـــعر، فلم يؤولوا إلى ديوان مـــدون وكتاب مكتوب وألفوا ذلك وقد هلك

من العرب مـن هلك بالموت والقتل، فحفظوا أقل ذلك وذهب عليهم منه كثير".

عـرف هذا القرن العديد من الرواة وعلماء الشـعر، كعمر بن العلاء، والمفضـل الضبي، وخلف الأحمر، وحمـاد الراوية، والأصمعـي، وأبي زيد الأنصاري، وابن سـلام الجمحي، وأبي سعيد السـكري، وأبي عمرو الشيباني، ومحمد بن حبيب، وابن السكيت وغيرهم.. ويظن أن لا سبيل إلى تحديد أسماء من قاموا بجمع الشعر في العصر الأموي، ولكن عددا ليس قليلا من العلماء قاموا بذلـك، واعتمدوا في جمعه وتدوينـه وتنظيمه على قدر مكتوب منه إلى جانب الرواية الشفوية.

الحفاظ على الثروة الشعرية

إن جهـد العلماء الرواة قد حافظ على قدر مهم جدا من الثروة الشعرية، بالاعتكاف على التصنيف والترتيب. ومن السهل تحديد خمسة أنماط حافظت على الشعر وهي:

١- الدواوين الفردية التي تخص شاعرا في حد ذاته.

٢- المختارات الشـعرية، وهي مجموعات تتضمن قصائد أو مقطعات منتخبة من آثار عدد الشعراء.

٣- المجموعات الشعرية الخاصة بشعراء قبيلة واحدة.

٤- مؤلفات تحـت عنوان "طبقات الشـعراء"، أو "أخبار الشعراء"، أو "الشعر والشعراء".

٥- مؤلفات الثقافة الأدبية العامة تتضمن من جملة ما تتضمن أخبارا عن الشعراء ونماذج من أشعارهم.

فبالنسبة لدواوين الشعراء يورد ابن النديم في الفهرست لائحة من العناوين مبنية وفق نمط موحد، هو ذكر اسـم الشاعر مضافا إلى مصطلح ديـوان أولا ثم زيادة مصطلح الصنعة أو العمل إليه مضافا إلى اسم الصانع وفق الصيغة الآتية: ديوان، واسم الشاعر، وصنعة أو عمل، واسم الشخص الذي عني به.

ونظرا لأن أغلب هذه المصنفات مفقودة، فإننا لا نسـتطيع معرفـة الصياغة الفعليـة لبنية العنوان فيهـا، لكن مصطلحات كـ"الصنعة" و"العمـل" بدأت تظهر خلال هذه المرحلة، وهي تشـهد على مدى العناية التي أصبح الشـعر يحظى بها من جهة التوثيق، والإشارة إلى الصانع لم ترد اعتباطا وإنما لضرورة التمييز بين الثقـاة من العلماء والوضاعين، خاصة بعد انتشـار ظاهرة النحل والوضع. فالصنعة توازي التحقيق في الوقت الراهن، ويبين ذلك أن العنوان صار بؤرة تتشكل من عناصر أساسية هي:

- الإشارة إلى الجنس وهو الشعر وقد يكون اختيارا.
- اسم الشاعر أو الشعراء أو القبيلة.
- اسم الصانع أو المحقق أو الجامع.

العنوان وظيفة تداولية

والعنـوان عندما يرد على هذه الصورة يـؤدي وظيفة تداولية، تستهدف المتلقي الباحث عن الشعر بمختلف أصنافه، لذلك فإن عناوين الدواوين تتضمن في الغالب النص على الراوي أو الشارح كأن يقال: "شعر النابغة برواية ابن السكيت" مثلا، أو "شعر لبيد بن ربيعة عمل أبي عمرو الشيباني أو الأصمعي أو الصولي أو ابن السكيت.. وهكذا". ومعنى ذلك أن الراوي أو الصانع كان يجمع الشعر من مصادر مختلفة مدونة وشفهية، ويقوم بعد ذلك بشرح المفردات، وبيان بعض الحروف الواردة في بعض الروايات. لأن العقلية الإسلامية السـائدة آنذاك فرضت عدم الاكتفاء بالتلقي الاعتباطي، وأصبحت تبحث عن المعرفة الصافية والمنظمة، بالنظر إلى كونها مادة يتم توظيفها في أمر جليل وهو التعمق في معاني القرآن.

لقد أثمرت الفتوحات انضمام غير العرب إلى الإسلام، الأمر الذي وسع دائرة التفاعل مع القرآن. وتلك حاجة غير متأتية إلا بمعرفة اللغة العربية التي يوجد قدر منها في الشـعر. ومن هنا فإن بنية العنوان خلال المرحلة تتجسـد على هذا التوجه، من خلال التركيز على الشرح والتفسير. ويخصص الباحث التركي المعاصر "فؤاد سزكين" حيزا من كتابه "تاريخ التراث العربي" لذكر شروح دواوين أغلب الشعراء المعروفين. فعناوين هذه المرحلة تركز على حاجة المتلقين بمختلف مسـتوياتهم إلى الشروح بالدرجة الأولى، لأن المتلقـي جديد لم يعد في حاجة إلى التأكد من صحة الرواية فحسـب، بل أصبح في حاجة إلى الزاد اللغوي الضروري الذي يعينـه على الفهم الصحيح لأحكام الدين، أو لبسـط ذلك لمن يهمه الأمر، أو الارتقاء في مراتب السلم الاجتماعي، وأمثلة ذلك كثيرة نذكر منها:

- شرح الأعلم الشنتمري (توفي سنة ٤٧٦هـ/١٠٨٣م).
- شـرح أبي بكر عاصم بن أيوب البطليوسـي (توفي سنة ٤٩٤هـ/١١٠٠م).
- شـرح محمد بن إبراهيم بن محمد الحضرمي (توفي سـنة ٦٠٩هـ/١٢١٢م).

تبين هذه النماذج على قلتها أن نمطا عنوانيا جديدا دخل ساحة الفعل الثقافي، وهو ربط الشرح بالشارح وفق بنية نمطية مركبة هي:

العنوان التجنيسي: شعر، والمضاف إليه (اسم الشاعر أو الشعراء)، والشرح مضافا إلى اسم الشارح.

يقوم العنوان الفرعي بوظيفة مزدوجة، الأولى تداولية تتمثل في كون المقصود هو الشرح وشارحه، والثانية عملية هي كون العنوان الوجه الظاهر المصاحب للنص في شكله المادي. وبهذا نكون إزاء بنية نمطية عميقة هي العنوان الأصلي مضافا إلى العنوان الفرعي.

وأما دواوين القبائل فكان حظها أفضل من حظ الدواوين المفردة. فقد ذكر ابن النديم في "الفهرست" قدرا مهما منها، وأضاف "فؤاد سزكين" عددا آخر، مرجحا احتمال وجود قسم منها قبل مرحلة الصناعة، ومن عناوين هذا الصنف التي ذكرها ابن النديم: أشعار الأسد (الأزد)، وأشعار أشجع، وأشعار بجيلة، وأشعار بني أسد، وأشعار بن الحارث، وأشعار بني حنيفة، وأشعار بني ذهل، وأشعار بني ربيعة، وأشعار بني شيبان، وأشعار بني مية.

لقد صيغت هذه العناوين على نمط واحد ارتكز على مصطلح "الأشعار" مضافا إلى اسم القبيلة وفق البنية الآتية: العنوان التجنيسي في الجمع (الأشعار)، واسم القبيلة.

العناوين والعصبية القبلية

وتستمد هذه العناوين قوتها من العصبية القبلية التي جرى تأجيجها أيام بني أمية. فكانت القبائل تجتهد في جمع قصائد شعرائها لتتطاول بها على القبائل. ولكن من حسنات هذه الظاهرة أنها مكنت من جمع قدر مهم من الشعر ظل متفرقا بين القبائل. وغالبا ما ترفق هذه العناوين بآخر فرعي يدل على جهد الجمع والتأكد من الصحة، متمثلا في "الصانع" أو "العامل"، فتصير بنية العنوان: العنوان الأساسي، والعنوان الفرعي (اسم الصانع) كأن نقول: "أشعار الأزد (عنوان رئيسي)، صنعه ابن السكيت (عنوان فرعي).

ومع ذلك نتساءل عما إذا كانت هذه الصورة التي ذكر ابن النديم، هي النمط الفعلي للعنوان الموجود في مقدمة الكتاب أم هو مجرد صفة نمطية تميز هذه الأشعار؟ وما كنا متسائلين لولا الذي ذكره الآمدي في كتابه "المؤتلف والمختلف"، حيث أورد مجموعة من أشعار القبائل على غير نمط واحد وفق الصورة الآتية:

النمط	أشعار	كتاب	شعر	مقطعات
العدد	٧	٥٠	٣	١

ترجح هذه الملاحظة وجود هذه الدواوين مكتوبة ومصدرة بعناوين معروفة. وما ذكره الآمدي مرة تحت مصطلح "كتاب" أو مصطلح "شعر" أو "أشعار"، ومرة تحت مصطلح "مقطعات" يؤكد ذلك. ولهذا فالآمدي لم يكن سوى ناقل أمين لهذه العناوين.

وأما المختارات الشعرية فلا يمكن إنكار البعد النقدي الذي تنطوي عليه، لارتكازها على التصور النقدي للمصنف، وعلى رؤيته الفنية وتقييمه للإبداع الشعري بصفة عامة وهي كثيرة نذكر منها:

- المعلقات
- المفضليات
- الأصمعيات
- حماسة أبي تمام
- حماسة البحتري
- جمهرة أشعار العرب.

ونتوقف عند "المعلقات" لننظر في طبيعة العنوان الذي وازاها في مراحل مختلفة. فقد شدت المعلقات الانتباه منذ جمعت أول مرة إلى يومنا هذا. وتأتي الشروح في مقدمة مظاهر الاهتمام الذي عكسه العنوان كما في النماذج الآتية:

– شرح لخمس معلقات، لمحمد بن أحمد بن كيسان، (توفي سنة ٢٩٩هـ/٩٢١م).

– شرح أبي بكر محمد بن القاسم الأنباري (توفي سنة ٣٢٨هـ/٩٤٠م).

– شرح لأحمد بن محمد النحاس (توفي سنة ٣٣٨هـ/ ٩٥٠م).

– شرح أبي سعيد الضرير (شرح المعلقات)، لأحمد بن خالد (توفي سنة ٦٨٢هـ/٨٩٥م).

– فتحة المغلقات لأبيات السبع المعلقات، لعبد القادر

أحمد الفاكهي (توفي سنة ٨٠٨هـ/١٤٠٥م).

- كتاب إمتاع البصر والقلب والسمع في شرح المعلقات السبع، ألف بين (١٧٤٢م-١٨٧٠م).

- مفتاح المغلقات في شرح المعلقات، لأحمد بن محمد بن عبد الكريم الموسوي المعلم، ألف بعد (١٢٧٦هـ/١٨٦٢م).

- عقود اللآلئ المنسقات في شرح السبع السموط والثلاث المعلقات، أكمله أحمد بن محمد بن إسماعيل المعافي النحوي (توفي سنة ١٢٨٧هـ/١٨٧٠م).

تطور الوعي بوظيفة العنوان التداولية

تبين هذه العناوين التطور الذي عرفته شروح المعلقات إلى حدود القرن التاسع الهجري. فقد بقي العنوان محافظا على نمطية بسيطة وغير مركبة تشير إلى طبيعة التأليف (الشرح) ثم إضافة اسم المصنف. لكن هذه البنية ما لبثت أن أصبحت مركبة مع ميل العنوان إلى الطول من جهة، وإلى استغلال بعض المؤثرات كالسجع والطباق، كما في "إمتاع البصر والقلب والسمع في شرح المعلقات السبع، وفي عقود اللآلئ المنسقات في شرح السبع السموط والثلاث المعلقات".

فالتكلف في العنوانين واضح، ولكنه تكلف يجلب الأنباه ويحث على التدبر، وهي مكونات تداولية تجلب المتلقي بالنظر إلى ما يجده فيها من عناصر الإغراء. وبذلك يكون العنوان قد دخل مرحلة جديدة يجسدها تطور الوعي بوظيفة العنوان التداولية. إذ لم يعد مجرد لحظة عابرة أو ثانوية، بل صار بؤرة أساسية تستوجب العناية والاهتمام. ومما يستدعي الانتباه على هامش المعلقات هو استمرار فكرة الشرح إلى حدود القرن ما قبل الماضي، مما يدل على أن لكل فترة شرحها الذي ينسجم مع مستوى الذوق السائد رقيا ونزولا. فتوالي الأجيال وابتعاد بعضها عن تذوق العربية يرفع من احتمال عدم فهم الأشعار القديمة، وتدبر آيات الذكر الحكيم مما يحتم ظهور الشروح بين الحين والآخر.

وأما كتب المعاني التي يقصد بها "المجموعات من الأبيات المرتبة وفق مفاهيم ومعان وموضوعات محددة، وتعنون بمثل: "كتاب المعاني"، "كتاب معاني الشعر"، "كتاب أبيات المعاني".. فهذا الصنف من المختارات الشعرية يغلب عليه الطابع الموضوعاتي لتركيزه على إيراد الأشعار التي وردت في معنى من المعاني، ويقوم على بنية حدية واحدة لا تتغير. وأورد "سزكين" مجموعة من هذه الكتب التي حافظت على النمط السالف، باستثناء عنوان واحد مركب هو: "كتاب الترجمان في الشعر ومعانيه" للمفجع محمد بن أحمد المتوفى سنة (٣٢٧هـ/٩٣٩م).

يذكر "سزكين" في معرض حديثه عن كتب المعاني محتويات بعضها ككتاب ديوان المعاني لأبي هلال العسكري، وهو مقسم تقسيما غير الذي أورده "سزكين"، إذ قسم إلى كتب هي كما في الجزء الأول منه: "كتاب المبالغة: في المدح والتهاني والافتخار، وهو الباب الأول من كتاب ديوان المعاني وهو ثلاثة فصول"، ثم "كتاب المبالغة في أوصاف خصال الإنسان المحمودة من الجود والشجاعة والعلم والحزم والعقل، وما يجري من ذلك وهو الباب الثاني من كتاب ديوان المعاني"، وتصدير عبارة "كتاب المبالغة"، بالبسملة مع دعاء استهلالي يجعلنا نظن أن:

- الكتاب في الأصل عدة كتب أو رسائل متفرقة تم جمعها في كتاب واحد.

- وأن له عنوانين هما "كتاب المبالغة" و"ديوان المعاني". ومن الراجح أن يكون العنوان الأول من وضع النساخ، لأن صاحب الكتاب يخبر في أكثر من موضع أن الكتاب اسمه "ديوان المعاني".

والصيغة الغالبة على هذه العناوين هو إشارتها إلى موضوع الفصل بدقة متناهية، يدرك ذلك بالاطلاع على تقسيم "كتاب الترجمان في الشعر ومعانيه"، الذي أورده "سزكين" كالآتي: كتاب حد الإعراب، كتاب حد المديح، كتاب حد البخل... إلخ.

والكتاب مقسم وفق صورة نمطية واحدة تتشكل من لفظة "كتاب"، التي توازي مصطلح فصل أو باب. وارتبطت موضوعات المصنف بلفظة "حد"، التي تقوم بمهمة تأطير الأنماط المعرفية ووصفها في إطارها الدقيق عن طريق تمييزها عن غيرها، واستقلالها عن الأنماط الأخرى. الأمر الذي يفسر بأنه ابتعاد عن الانطباعية وسيطرة الدوافع العلمية. ■

(*) جامعة شعيب الدكالي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - الجديدة / المغرب.



أسرارُ هندسية في خلية عسل

أ.د. محمد سامي بولات أوز *

مَن علّم النحل كيفية تقسيم الوحدة الكبيرة إلى عيون صغيرة بالحجم اللازم وبطريقة هندسية محكمة؟ مَن علّمها استخدام المواد المتوفرة بقدر معين؟ ما هي ميزة الشكل السداسي عن الشكل الثلاثي والرباعي المتساوي الأضلاع؟ كيف استطاعت النحل حساب كمية العسل في كل خلية، وكيف علمت أن بنية سطح الخلية السداسية هي الأمتن؟ وكيف عرفت أن الشكل السداسي هو الأنسب والأوفر من بين الأشكال الأخرى؟ كيف تمكّنت النحل التي تعيش ستة أسابيع فقط، تنفيذ الحسابات الدقيقة والتطبيقات العملية؟ وكيف استطاعت ضبط المقاييس الحساسة التي يستحيل للإنسان أن يعيها بسهولة؟ وهل يمكن أن نصف أعمال النحل هذه بأنها "غريزة"، أم أنها توجيه إلهي؟

أثارت خلية العسل وهندستها المعمارية المذهلة اهتمام البشرية جمعاء. وقد بلغ سماكة جدران هذه الهندسة الدقيقة للغاية والتي تكونت من أقراص سداسية بجوار بعضها البعض، حوالي (0,1 مم)، أما الانحراف عن هذا القدر الوسطي لا يتعدى عن (0,002 مم). ومن أجل استيعاب مدى دقة هذه القاعدات الهندسية في بناء الخلية، يجب أن نملك نظرة حسابية ورياضية عميقة جداً.

الدائرة هي شكل هندسي مستو محدود، ونقاطه متساوية الأبعاد من نقطة داخلية تسمى مركز الدائرة. فإذا قابلنا –على سبيل المثال– طول محيط الدائرة ومحيط المربع الذي يبلغ (10 سم^2)، رأينا أن محيط الدائرة أقصر من محيط المربع. ولكن الحال يختلف في بناء خلية العسل تماماً. إذ من أهم الجوانب التي شدت الاهتمام في عمل النحل هي القدرة على البناء، البناء الذي قامت كل نحلة بوضع جزء من أجزائه، وذلك في انسجام كامل مع المعايير الهندسية المتسلسلة. ومما يجدر ذكره هنا أن الشكل السداسي هو الشكل الذي يشغل مساحة أقل عن الأشكال الهندسية الأخرى، لأن الخلية السداسية الشكل هي التي تتطلب أقل كمية من شمع العسل، في حين تخزّن بداخلها أكبر قدر ممكن من العسل. وعلى هذا النحو تكون النحل قد اكتشفت كيفية إنشاء بناءٍ بالحجم اللازم وبطريقة اقتصادية أكثر، كما تكون قد استخدمت المواد بقدر معين دون إسراف.

ولقد أثبتت الدراسات أن الشكل السداسي هو الأنسب لاستخدام مساحة الوحدة بالكامل مع استخدام أقل قدر ممكن من المواد اللازمة لإنشاء أقراص العسل. ولو كانت هذه الأقراص ثلاثية أو رباعية الشكل لتمّ استخدامها دون ترك فراغات، ولكن المواد المستخدمة من أجل الخلايا السداسية أقل بكثير من المستخدمة من أجل الخلايا الثلاثية أو الرباعية. أما في الأشكال الهندسية الأخرى فلابد من بقاء مساحات شاغرة.

السؤال الذي يتبادر إلى الذهن ها هنا هو: أي مضلّع متساوٍ يمكن أن نستخدمه عند تقسيمنا منطقة معينة؟ فمن المعروف أن مجموع قياسات الزوايا الداخلية للمضلّع هو (n/360-180)

درجة. وعندما نرغب في تقسيم منطقة كبيرة إلى مساحات صغيرة، ينبغي على المضلّعات المجاورة أن تلتحم جيداً بعضها البعض دون أن تترك بينها مساحات فارغة، وكذلك ينبغي أن يكون مجموع الزوايا الداخلية للمضلّعات المجاورة الملتحمة، (360) درجة، أي بعبارة أخرى ينبغي أن يكون ضعف العدد الصحيح للزاوية الداخلية هو (360) درجة. وعلى هذا النحو فيمكن أن نكتب المعادلة التالية لتوضيح عدد الزوايا الداخلية المجاورة للعدد الصحيح "N".

$$N (180 - 360 / n) = 360$$

ومن ثم يكون العدد الصحيح "N"

$$N = 2n / (n-2) = 2+4 / (n-2)$$

وما نحاول الوصول إليه هنا هو الحصول على العدد الصحيح "N" من بين عدد الأضلاع "n". ويمكن أن نحصل على قيمة الأعداد الصحيحة في (n= 3، 4، 6) فقط، في حين لا يمكن الحصول على أي عدد صحيح في أرقام ما فوق (6). أي إذا أردنا تقسيم منطقة دون ترك أي فراغ، فيجب علينا أن نستخدم الشكل الثلاثي أو الرباعي أو السداسي، لا الشكل الخماسي المنتظم، لأن الأشكال الخماسية عند تكرارها تترك فراغات وبزاوية (360) درجة. وبناء على ذلك فإننا إذا قارنّا الشكل الثلاثي والرباعي بالشكل السداسي، رأينا أن الثلاثي والرباعي يملكان نفس العمق ويخزنان نفس الكمية من العسل، إلا أن المساحة التي يشغلانها تكون أكبر من المساحة التي يشغلها الشكل السداسي.

كان الاعتقاد السائد لا سيما عند علماء الأحياء، أن الغاية الرئيسية من بناء الخلايا بالأشكال السداسية هي تقليل حجم العمل وكمية الشمع فقط. ولكن خلال القرن الماضي اتضح السر في اختيار النحل هذه الأشكال، وهو أن استخدام الأشكال السداسية تجعل بنية السطح أقوى، ومن ثم تؤمن استهلاك أقل قدر ممكن من المواد. وقد تم فيما بعد دراسة الطريقة المثلى لتقسيم السطح إلى أقسام متساوية ومتماثلة في الشكل بحيث لا تترك أي فراغ بينها. وقد أثبتت هذه الدراسة أن أنسب الأشكال التي ينبغي استخدامها هنا هي الثلاثية والرباعية والسداسية، وأن الأشكال الأخرى ستؤدي إلى ظهور فراغات حتماً.

لم يستطع أحد من العلماء تقديم الشرح الكافي في اختيار النحل للأشكال السيداسية رياضياً حتى حلول عام ١٩٩٩، وذلك عن طريق "توماس هاليس". إذ استطاع "توماس" وضع البرهان النهائي في أن اختيار النحل للأشكال السداسية هي لكونها أوفر وأقوى وأفضل حل لتخزين العسل. وقد تبيّن أن الطريقة التي ابتكرتها النحل في تصميم الخلايا على أشكال سداسية، تتمتع بفوائد جمة في تقليل الطاقة اللازمة في العمل وكمية الشمع اللازمة للتغليف؛ حتى إن "داروين" نفسه وصف هذا البناء بأنه ابتكار هندسي مذهل. فكيف استطاعت النحل حساب كمية العسل في كل خلية؟ وكيف علمت بأن بنية سطح الخلية السداسية هي الأقوى؟ وكيف عرفت أن الشكل السداسي هو الأنسب والأوفر من بين الأشكال الهندسية الأخرى؟! لابد هنا أن نلفت الانتباه إلى أن النحلة لم تتعلم كل ذلك من تلقاء نفسها أو بالصدفة، بل خالقُها هو الذي أعطاها كل هذه المزايا، وقابلية حلّ جميع المشاكل الرياضية هذه، وأمر النحلة بإنجازها على أكمل وجه.

وقد قام الباحثون بالفحص عن تجربة النموذج الرياضي لـ"توماس"، حيث استخدموا من أجل ذلك الهواء السائل الرغوي. فقاموا بضخّ فقاعات رغوة المسحوق التي يبلغ قطرها (2 مم)، على شكل طبقتين بين زجاجتين. فتحولت الفقاعات التي لامست الزجاج إلى أشكال سداسية. وظهر في الطبقتين الوسطيتين شكلُ المربعين والمسدّسين اللذين حلّلهما "توماس". وعندما زيد من سماكة جدران الفقاعات قليلاً، ظهرت حالة مثيرة للاهتمام، إذ تحوّل الشكل فجأة إلى ثلاثة مربعات متساوية الأضلاع، كما يحدث عند النحل تماماً. وقد أكدت هذه التجربة أن النحل تُغيّر من شكل خلية العسل عند أي تغيرات ومستجدات تحدث، وليس لدى النحل عقدة في الاحتفاظ بشكل دون الآخر.

هذا وقد بيّن الخالق ﷻ نعمته على البشر حيث كلف النحل بصنع العسل أكثر من حاجتها، كما أن كل هذه الأمور التي تنجزها النحل تحدث نتيجة تنظيم رباني وتدبير إلهي: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۞ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(النحل:٦٨-٦٩). ■

(*) أستاذ في جامعة جلال بيار / تركيا. الترجمة عن التركية: نور الدين صواش.



المسلم والخيال العلمي

د. خالد عمارة *

من الملاحظ في السنوات الأخيرة وما يدعو للقلق، ازدياد ظاهرة تسرب أفكار هدامة وغريبة إلى شباب المجتمعات الإسلامية من خـلال ما يوصف بروايات أو أفلام الخيال العلمي؛ مثل قصص حرب النجوم، ويوم الاستقلال والكثير غيرها. ونجد هذه الأفكار تؤثر في تشكيل وعي شبابنا ونظرتهم إلى المستقبل.

ويستعمل الكثيرون مصطلح "الخيال العلمي" لوصف قصص أو توقعات لأحداث تقع في الحاضر أو المستقبل. وهذا يكون مبنياً على معلومات من الماضي والحاضر. ووفقاً لرأي مؤلف قصص الخيال العلمي "روبرت هينلين" فإن التعريف المختصر للخيال العلمي هو تصور واقعي لأحداث مستقبلية محتملة الحدوث، على نحو يرتكز بقوة على المعرفة الكافية بالواقع الحالي والماضي والحاضر، والإلمام التام بالطبيعة مع أهمية الأسلوب العلمي. ويعتمد هذا اللون من الأدب على ما يتوفر لدى الإنسان من معارف علمية، ويضيف إليها ما توفر من دروس تاريخية وخبرات فلسفية ليصوغ هذا كله في صورة قصة خيالية يرى فيها أحداثاً مستقبلية.

إن القرآن هو كتاب للهداية وتهذيب النفس البشرية. ولا يجب أن يكون هناك تعارض بين الرسالة التي يحملها القرآن للبشرية وبين ألوان الإبداع التي يمكننا أخذها وتنميتها من هدي القرآن ونوره.

وفي الوقت الذي يقدم فيه أدب الخيال العلمي نقداً للتقنيات المتطورة والمستقبلية، فإنه يقدم أيضاً ابتكارات وتقنيات جديدة. وقد تمت مناقشة هذا الموضوع في المحافل الأدبية والاجتماعية بصورة تفوق مناقشته في المحافل العلمية.

وهناك الكثير من الفروع المشتقة من هذا الأدب منها: السفر عبر الزمن، والتاريخ البديل، والخيال العلمي العسكري، وأصحاب القدرات الخارقة، والقصص التي تعبر عن نهاية العالم، وأوبرا الفضاء (قصص رومانسية في الفضاء)، وقصص غزو الغرب للفضاء، وقصص الرعب أو الغموض.. إلى آخره من الأنواع التي تمزج بعض الواقع ببعض الخيال.

ومن الملاحظ في هذا النوع من الأدب أن تسميته بـ"الخيال العلمي" هو أحد نتائج الخلط الذي حدث مع بداية القرن التاسع عشر، باعتبار أن المستقبل للعلم وأن الماضي كان للروح، وبالتالي فالأدب المعني بتخيل المستقبل هو أدب أو خيال علمي. وهذا مما لا نتفق معه في الفكر الإسلامي، حيث أن الماضي والحاضر والمستقبل يجب أن يكون مبنياً على توازن بين العقل والروح والجسد، فلا يطغى أحدهم على الآخر.

النظرة إلى التاريخ

ونجد أغلب هذا الأدب النابع من الغرب أو المقلد له في باقي أنحاء العالم، ينظر إلى تطور التاريخ على افتراض أنه في اتجاه واحد بدأ مع بداية الخليقة و ينتهي بفنائها. وهذه النظرة الغربية في التاريخ تعود إلى العصور الوسطى الأوروبية، في حين أن النظرة الإسلامية للتاريخ -وتتفق معها بعض الفلسفات اليونانية والشرقية- تنظر إلى التاريخ على أنه عملية تبادل لمركز الصدارة بين حضارات وشعوب ودول مختلفة، من الشرق والغرب ومن الشمال والجنوب. ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾(آل عمران:١٤٠). ونتيجة لهذا، نجد في الكثير من قصص "الخيال العلمي" أن المستقبل لا يزال في الغرب، ولا يفترض أن مركز الحضارة يمكنه أن يعود إلى الشرق مرة أخرى. وحتى في قصص نهاية العالم التي يملؤها التشاؤم، نجد أن العالم كله ينتهي والحضارة تنهار بانهيار الحضارة الغربية. ولا نجد افتراضاً أنه من الممكن في المستقبل أن يتراجع الغرب ويصبح متأخراً، بينما يتقدم عليه في الحضارة والعلوم الروحية والعقلية مكان آخر أو شعب آخر من شعوب الإنسانية وأجناسها.

وبما أننا تطرقنا إلى القصص التي تعبر عن نهاية العالم، فنجد أغلب قصص الخيال العلمي تتحدث بصورة يملؤها التشاؤم. وقد يكون مصدر هذا، ما هو موجود في أدب العصور الوسطى الأوروبي من حديث عن معركة "هرمجدون"، ومعارك نهاية العالم التي يموت فيها سكان الأرض قبل عودة السيد المسيح، في حين أن ما يتوفر لنا من معلومات من القرآن عن النهاية، أنها تكون لصالح المؤمنين، ودون أن يكون هناك تلك الاستفاضة في الحديث عن بحور للدماء أو القتل تسبق هذا، ﴿إِنَّ الأَرْضَ لِلّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾(الأعراف:١٢٨)، بل إننا نجد القرآن يقدم هذه الآية كقاعدة وسنة من سنن الله في الأرض تكررت وستتكرر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

القرآن وأدب استقراء المستقبل

وبما أننا كمسلمين نؤمن بأن كل ما نزل به القرآن هو حق وصدق حتى وإن لم تتسع مداركنا و لم يحط علمنا الحالي لفهمه وإدراك كامل معانيه، إذن فإن أدب استقراء المستقبل لدينا يمكن أن يعتمد ليس فقط على العلوم المادية المتوفرة لدينا، بل وأيضاً على الهدى القرآني، ولنستعمل كليهما لتنمية طاقات الإبداع لدى روائيينا وسينمائيينا. ويكون الهدف هو نشر الفضيلة والحث على العمل الصالح وتبليغ دعوة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام ليس فقط إلى مجتمعاتنا، بل وإلى مجتمعات وأناس لم يعرفوا بعدُ حقيقة ديننا الحنيف.

إذن فماذا لو نظر أحدنا بخياله عبر المستقبل مستعيناً بما توفر لنا من هدى القرآن، وما وصلنا من معلومات ودروس من التاريخ، وما وصل إليه العقل البشري من علم؟ لابد وأننا سنرى ونتخيل المستقبل بنظرة مختلفة لم تتوفر لسابقينا ممن كان لديهم نصوص القرآن، ولكن لم يتوفر لهم العلم الكافي لفهم هذه النصوص، وأيضاً ستكون نظرة مختلفة عمن توفر لهم العلم و لم يتوفر لهم الهدى القرآني. فهناك الكثير من آيات القرآن لم يسهل علينا فهمها إلا بعد أن فسرها العلم الحديث لنا مثل: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۞ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَ يَبْغِيَانِ﴾(الرحمن:١٩-٢٠)، ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾(النبأ:٧)، والكثير من الأمثله على معجزات علمية حدثنا عنها القرآن منذ (١٤٠٠) سنة وكل يوم نفهم المزيد منها، فكلما زاد علمنا الدنيوي كلما زاد فهمنا لقرآننا.

القرآن حافز للخيال والإبداع

كما نجد القرآن يحوي الكثير من الصور من الماضي والمستقبل،

والتي تكفي كل صوره منها لإثارة الخيال وبناء صور وقصص على مستوى عالٍ من الرقي. فمثلا إذا تأمل الإنسان في بعض علامات الساعة المذكورة في القرآن، نجد ما يحفز خيال المبدع بصور مركبة. فننظر مثلا إلى بعض الآيات: البحار فجرت، القبور بعثرت، الجبال سيرت، وانشق القمر.. والكثير من الصور الملحمية والتتابع والترابط فيما بينها، يكفي كقاعدة بيانات لكثير من قصص تصور المستقبل البعيد. وهناك ما يصف بعضا من أوصاف الجنة أو الجحيم، رغم أن بها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. ولكن الأوصاف التي نجدها في القرآن، بها من الحفز للخيال ما يكفي للكثير من الإبداع.

وفيما يتعلق بصور الماضي وعظاته فهي أيضاً مليئة بما يلهب خيال القصاصين والرسامين والمبدعين.. فنجد في القصص القرآني من قصص السابقين؛ كقوم عاد وثمود ولوط ومدين.. الكثير من المعجزات والمشاعر الإنسانية الجميلة والمعبرة، كما نجد في قصص بني إسرائيل وقصص الرسل عليهم السلام الكثير من الملاحم الإنسانية والمعجزات. هذا فضلاً عن سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام.

كما نجد في هذا القصص القرآني الكثير من التشابه مع وقائع حدثت وتحدث وستحدث في حياة كل منّا. من هذه الأمثلة الآيات (٢٦) إلى (٣٣) من سورة غافر، حيث نجد مناظرة بين مرشحين في حملة انتخابية، يحاول كل منهما إقناع الملأ والعامة بوجهة نظره، وللأسف ينجح من يناصر الرأي الظالم (فرعون) في أن يستخف عقول قومه فيطيعوه ويتبعوه إلى التهلكة.

صور المستقبل والخيال الإنساني

وهناك من الصور القرآنية نوع آخر يتحدث عن المستقبل، ولكن لا نعرف بعد هل بقي الكثير أم القليل على قدوم هذا المستقبل، من أمثله هذا: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا﴾(النساء:١١٩). فهل هذا له علاقة بالهندسة الوراثية أم بجمع الإنسان الآلة أم هناك ما هو أكبر وأعقد؟! لا أعتقد أننا قد فهمنا هذه النبوءة جيداً بعد. وهناك أيضاً بداية سورة الإسراء ونبوءة المواجهة بين بني إسرائيل و بين عباد الله المؤمنين. والكثير من النبوءات التي لم نفهمها جيداً بعد، وبالتالي فهي مفتوحة لما يتوفر في الواقع من معطيات وأدلة وما يكمله من الخيال الإنساني.

وهناك النوع الآخر من القصص أو النبوءات وهو القصص الذي لا نعلم وقته وزمنه، وهل هو حدث فعلاً في الماضي أم أنه سيحدث في المستقبل أم أنه سيتكرر حدوثه.. ومن أمثلة هذا، قصة ذي القرنين ويأجوج ومأجوج، وسبب هذا أن القصص القرآني واضح فيه وفي حدوثه، ولكن لم يطلعنا بالتحديد على زمانه أو مكانه. وبالتالي فقد ترك لنا أن نتخيل ما نشاء بشرط أن نتخذ العظة والعبرة المطلوبة لصلاح دنيانا وآخرتنا.

إن القرآن هو كتاب للهداية وتهذيب النفس البشرية، ولذلك فكل ما نتعلمه منه يجب أن يصب في نفس الاتجاه، ولا يجب أن يكون هناك تعارض بين الرسالة التي يحملها القرآن للبشرية وبين ألوان الإبداع التي يمكننا أخذها وتنميتها من هدى القرآن ونوره.

إذن فما يسمى بـ"الخيال العلمي" إذا كتبه أديب مسلم أو سينيمائي مسلم مطلع على دينه و قرآنه فسيعطينا شكلاً مختلفاً تمام الاختلاف، كما سيكون المضمون والمحتوى أقرب لما نؤمن به وأكثر قدرة على نشر الدعوة الإسلامية و الفضيلة، ليس فقط في مجتمعاتنا، بل في البشرية جمعاء. ■

إن أدب استقراء المستقبل يمكن أن يعتمد ليس فقط على العلوم المادية المتوفرة، بل وعلى الهدى القرآني، ولنستعمل كليهما لتنمية طاقات الإبداع لدى روائيينا وسينيمائينا. ويكون الهدف هو نشر الفضيلة والحث على العمل الصالح وتبليغ دعوة نبينا محمد ﷺ إلى العالم كافة.

(*) أستاذ جراحة العظام، جامعة عين شمس / مصر.



الزمن الروحي في فكر النورسي

أديب إبراهيم الدباغ *

يمكنكم أنْ تقولوا -وأنتم مصيبون- إنَّ "النورسي" هو رجل الغد الآتي، وفي الوقت نفسه رجل الأمس الذاهب.

فالزمن في فكره روحي خالص، يحياه بأبعاده كلِّها، ووجود حي لا يموت ولا يفنى. وكلُّ كُلِّيٍّ من أيّ حِقْبة من حِقَبه أتيْتَه فقد أتيتَ الزمنَ كلَّه، وبأيّ مِفصَلٍ من مفاصله أمسكتَ فقد أمسكتَ بكلِّ مفاصله.

ولهذا الزمن الروحي خاصيَّة متفردة بين الأزمان، وهي خاصيَّة الإحياء الذي يناهض ضروب الموت، فيحفظ الأَحداث والوقائع حيةً تنبض بالحياة وتنعم بالخلود. فإذا ما أوغل "النورسي" في ماضي هذا الزمان فإنما يوغل في الزمان كلِّه، ماضيه وحاضره ومستقبله، لأنه وحدة واحدة لا فواصل بينها ولا حدود، ومتداخلة الأبعاد، إذا أمسك ببعد واحد منها فقد أمسك بالأبعاد كلِّها.

فكتابات "النورسي" إنما هي هذا المزيج الزماني، يتدفق من قلمه على صفحات "رسائل النور". فأنت تقرأ فيها روح الزمان متلاحماً مع روحه وممتدًّا فيه، ومتغلغلاً في سويدائه، فإذا تكلَّم لا تدري أيَّ روح هو الذي يتكلم، أهو روح الزمان أم هو روح نفسه؟!

فكتاباته ماضوية حضورية، وحضورية ماضوية، والآتي الذي سيكون هو شقيق الزمن الذي كان، وقد تتداعى الأزمان كلها لرفد زمن واحد، والزمن الواحد قد يتسلَّل إلى كل الأزمان ليزيدها حضورًا وحياةً وخصْبًا. ولقد تعلّم "النورسي" من القرآن الكريم أستاذه الأول والدائم، هذا الأسلوب المزجي بين الأحقاب، وتشرَّب ذهنه ووجدانه زمان القرآن الروحي واستوحاه في أعماله الفكرية كلِّها.

فالزمن القرآني هو زمن وحدوي كلِّي الأبعاد، لا يُجَزَّأُ ولا يُقسَّم. فالآية القرآنية وأينما كان موقعها من السورة تحتوي

على الأبعاد الزمانية جميعًا، وهي مرآة تعكس ســرمدية القرآن، وتعكس أزلية منــزل القــرآن وأبديته، فكل زمان غيرها يبدو بجانبها وكأنه برهات طافية في فراغ زماني سحيق.

إنَّ حِسَّ "النورســي" الزماني التوحدي غدا مع الأيام طابع أعمالــه الفكرية، مِما أضفى عليها صفاءً زمانيًا تتجلَّى به آفاقها الأبدية، حتى لو كانت معالجات زمانية ومكانية محدّدة ومعينة.

ولكــون القرآن الكريم وضع في يده زمام الزمان كلِّه، لذلك فقد انصرفت عنايته إلى المسائل الأبدية التي تُحْسَب أعمار الأكوان إلى جانب عمرها وكأنها أعمار آحاد لا تكاد تُحْسَب.

إن فكرة "الزمان الروحي" التي عالج "النورسي" على ضوئها أكبر الحقائق وأصغرها يمكن أنْ تقلب العالم رأســا على عقب، إذا هي اعْتُمِدتْ مــن قبل المفكرين والمؤرخين وأصحاب الرأي وتدارسوها بمزيد من التواضع والاهتمام. فمشكلات العالم ناجمة من عجزه عن اســتيعاب هذه الفكرة التي تستوعب الأكوان ولا تســتوعبها الأكوان. فالحياة الإنســانية تظل لغزًا غامضًا ما لم ننــزلها منــزلتها من حياة الأبد.

فكلما ازددنا دراســة للإنســان، وفحصًا لمكونات حياته الجوانية من فكر وحدس وخيال ومشــاعر وأحاسيس وذاكرة، وجدنا مزيدًا من الأدلة على أن الإنســان يشــعر بطريقة ما أنه صُنع للأبد، وخلِق للخلود، وأن مكانه في الأبدية في خاتمة جميع أزْمِنته، وحتى وهو بين لُجَب الحضــارة والصناعة يرتدي فوق إهابة -أراد أم لم يرد- حُلَّة من القداســة تظل محفوظة من أدخنة المصانع وســحب الأجواء الملوّثة بالغبار والتراب والسخام، إلى حين العودة إلى نفســه والرجوع إلى ذاته، الحافلة بتاريخ الروح والمفعمة بالفهم والأدراك... فأيُّ زمان نسبــي لا يتلاشى أمام هــذا الزمان الروحي المطلق الأبعــاد والذي يموج بكبرى وقائع الروح الإنســاني وعظائم أحداثه وصراعاته وكفاحاته من أجل تحقيق ذاته وإثبات وجوده.

فالنورســي يرى في تنــزلات الكتب الإلهية ولاسيما القرآن إســهامًا إلهيًا مع الإنســان في كفاحه الدائم مــن أجل إحراز الانتصار على نســبيات العالم وفنائياتــه، وتأهيل الروح لتجد مكانها من الأبدية التي تتوق إليها. فكلما ارتفع الروح زاد نتاجه وعظمت أمجاده وعَمَّ نفعه، واجترح من المعجزات والابتكارات والإبداعات ما يُضاف إلى إرث الإنســانية، ويزيد في تاجها دُرَّةً جديدة من درر الروح الإنساني العظيم.

فالتعريف المبتكر الذي يقدمه "النورسي" للقرآن الكريم يكشف لنا عن عمق "الزمان الروحي" في نفســه، وانعكاسات ذلك في أفكاره وكتاباته، فيقول: "فالقرآن الحكيم الذي يعرِّف لنا ربَّنا:

- هو الترجمة الأزلية لهذه الكائنات،
- والترجمان الأبدي لألسنتها التاليات للآيات التكوينية،
- ومفسّر كتاب العالم،
- وكذا هو كشّــافٌ لمخفيات كنوز الأسماء المســتترة في صحائف السموات والأرض،
- وكذا هو مفتاح لحقائق الشــؤون المـُـضْمَرة في ســطور الحادثات،
- وكذا هو لسان الغيب في عالم الشهادة،
- وكذا هو خزينة المخاطبات الأزلية السبحانية والالتفاتات الأبدية الرحمانية،
- وكذا هو أســاسٌ وهندســةٌ وشمسٌ لهذا العــالم المعنوي الإسلامي،
- وكذا هو خريطة للعالم الأخروي. (الكلمات، الرشحة الرابعة عشرة)

وأود أنْ أنبــه إلى أن هذه النقاط التســع ليســت هي كل تعريفاته للقرآن. فقد اكتفيت بها لأنها تفي بالغرض الذي أتوخاه في هــذا المقام. فهو في هذه التعريفات يعطي للكائنات بُعدًا أزليًّا وبعدًا أبديًّا، ويشعرنا بأنَّ هذين البعدين يمسكان بالخليقة ويصبَّان فيها زمانًا إلهيًّا وحدوي الأبعاد لترى نفســها على حقيقتها من خلالهما، ولتختار مكانها منها على علم ودراية، ولتقوم بعد ذلك بتفسير العالم والزمن والتاريخ على ضوء هذه الاختيارات.

فالتاريخ البشري هو خيال الزمن الروحي، وظلٌّ من ظلاله، وطيف شاحب من أطيافه، ويســتمد من روح الزمان ووحدته الوجودية عناصر صيرورته وامتداداته، غير أن الإنسان يأبى إلا أن يحدَّ من نفســه، ويُصاغِرَ من وجوده، فيضغط التاريخ، ويقارب بين مطلق أزمانه، ثم يجزئه ويقسمه إلى حِقَبٍ وأزمان، على الرغم من أنّ الإنســان الذي هو مادة التاريخ الأولى مرتبط بحقيقة كُلِّ الوجود متفاعل ومتناغم معه، فما لم يُفْهَمْ الكلُّ لا يُفهَمُ الجزء.

فالتاريخ إنما هــو انفعال زماني حافز لتحريك قوى التحدي لدى الإنســان عندما تداهمه نذر الفناء والزوال، حرصًا منه على الامتداد الخالد في الروح الزمــاني الحفيظ على نضالات الروح وعلى ارتقاءاتها في سلّم الانعتاق الأبدي من آسار الزمان والمكان.

وأعود فأقول إنَّ الزمان الروحي عند "النورســي" ليس هو

بأسلوب كتابة وتفكير فحسب، بل هو أسلوب حياة، وطريقة عيش وسلوك، لأنه يسرى في عروقه وأعصابه ويخالط دمه، فصاحب هذا الزمان لا يمكن أنْ يضلِّلَ العقول، أو يستهين بالأفهام، كما قال مخاطبًا تلامذته: "اعْلموا أنـي لا أخدعكم، ولا أقول لكم إلاّ ما لامسته وأبصرته عن تجربة ودراية". "أقول تحدثاً بالنعمة وأداء للأمانة بأني لا أخدعكم، إنما أكتب ما أشاهد أو أتيقن عين اليقين أو علم اليقين". "فما كتبتُ إلاّ ما شاهدتُ.. بحيث لم يبق لنقيضه عندي إمكانٌ وهمي". "إذ سلكتُ طريقاً غير مسلوك، في برزخٍ بين العقل والقلب".

فهو يريد أن يحفز تلامذته إلى أعظم أعمالهم وأخلدها على الزمان، ويجعلهم يتلمحون الحقيقة المجرَّدة التي تضل عنها حواس الأزمنة القصيمة وعقل الزمن ذي الوحدات المجزأة والمقسَّمة.

فالتقاؤنا بالروح الإلهي عبرَ هذا الزمان لا يفوق طاقة الإنسان وقدراته الروحية، إذا هو أرهف حسَّه الزماني، وشحذ بصيرته الإدراكية، وتجاوز مسائل الساعات العابرات، وكثّف جهده من أجل الكشف والرؤية.

ولا يمكن إدراك هذه الرؤية إلاَّ من خلال جرأة روحية تواجه الامتداد الزماني بوعي امتدادي مثله، وبهذه الرؤية يمكننا الحكم على أحداث التاريخ ليس من خلال سياقاتها الزمانية فحسب، بل ومن خلال وشائجها الكونية والقدرية كذلك، فلا نخطيء الحكم ولا نشتطُّ فيه، وسنرى إذا ما أرهفنا بصيرتنا الروحية أن ما من حدث إلا ويكمن فيه الماضي كما يكمن فيه المستقبل، وما من حدث إلا وهو تركيبة عجيبة تختلط فيه جميع الأزمنة؛ حاضرها وماضيها وآتيها، فكما تفنى جميع ألوان الطيف في البياض الذي هو ملتقى الألوان هكذا تفنى الأزمنة كلها في الحدث التاريخي المرصود مترجما عن زمانية واحدة هي زمانية "الأبد الموعود".

فالتاريخ البشري لا يمكن أن يكون مصدرا من مصادر التنوير الفكري والمعرفي كما يريد القرآن، ما لم يواكب حِسُّنا التاريخي امتدادات الزمان في كل أبعاده وحتى نهائياته الكونية، وهذا هو الحسُّ الجامع الذي اعتمده "النورسي" في رؤاه للزمن وللتاريخ. ■

(*) كاتب وأديب عراقي.



جسر العبور

جسرُ عبورك مهدوم،
ومحلَولك الليل من حولك مبروم...
إذن:
اِحفر في الزمن نفقًا،
وأقِم جسرًا،
وعن السير لا تتوقّف...
فبَصيص النور من بعيد يناديك،
وإليه يدعوك،
وعن قريب سينفجر النور
وتعمُّ البهجة والسرور...
* * *



لا نُكْبر من الأمم إلا التي تستظل بظلال الوحدة والألفة من خلال وحدة المعرفة في الدين واللغة والتاريخ..

***

الثقوب السوداء العملاقة



محمد هاشم البشير *

إذا قمت برمي صخرة إلى الأعلى فيلاحظ أنها ستفقد سرعتها تدريجيا حتى تصل إلى الصفر. وعندها يجرها التراجع فتعود مرة أخرى إلى الأرض، وبالتالي تبدأ باستعادة سرعتها حتى تصل إلى الأرض بنفس السرعة التي صعدت بها.. إنها الجاذبية الأرضية وقد فرضت سلطتها الكونية على هذه الصخرة، مع العلم أن تسارع الجاذبية الأرضية يبلغ ٩,٨ م/ث٢ في معظم بقاع الأرض. فمن أجل أن تهرب الصخرة من مجال الجاذبية الأرضية، لابد أن تمتلك وسائل بسرعة تبلغ (١١ كم) في الثانية، وتسمى هذه السرعة بـ"سرعة الإفلات". إن الشمس أكثر خطورة من الأرض لأن سرعة الإفلات من سطحها تبلغ (٦٠٠ كلم) في الساعة، كما أن هذه السرعة أسرع بثلاثة آلاف مرة من طائرة نفاثة. وكلما انضغطت كتلة المادة في حيز ضئيل حتى وصل حجمها إلى ما يسمى "الحجم الحرج"، سيقل احتمال الهروب من هذا الجسم كلما زادت الكتلة وقل الحجم. وبالتالي إن أكبر السرعات لا يمكن أن تصبح سرعة إفلات من هذا الجسم إلى أن تصل من الخطورة، حتى الضوء لا يمكن أن يفلت منه بالرغم من أن سرعة الضوء هي أعلى سرعة اكتشفها العلم حتى اليوم، فأي شيء يمر بهذا الجسم سيحاصره الجسم إلى الأبد.

تعتبر الثقوب السوداء، الظاهرة الأعنف والأكثر غموضا في هذا الجانب. فالثقب الأسود يمثل المرحلة الأخيرة من حياة النجم، حيث ينتج الثقب الأسود من انهيار نجم هائل على نفسه فتتكدس مادة النجم في حجم صغير جدا، وبالتالي فكثافة الثقب الأسود تكون هائلة وجاذبيته مهولة، بحيث إنها لا تسمح لأي شيء يقترب منها أن ينفلت حتى الضوء، ويزداد تركيز الكتلة، أي كثافة الجسم (نتيجة تداخل جسيمات ذراته وانعدام الفراغ البيني بين الجزيئات) وتصبح قوّة جاذبيته قوّية، بل وإلى أبعد من ذلك. فحسب النظرية النسبية العامة لـ"أينشتاين" فإن الجاذبية تقوّس الفضاء الذي يسير الضوء فيه بشكل مستقيم بالنسبة للفراغ يمتص الضوء المار بجانبه بفعل الجاذبية، وهو يبدو لمن يراقبه من الخارج كأنه منطقة من العدم، إذ لا يمكن لأي إشارة أو معلومة أو موجة أو جسيم الإفلات من منطقة تأثيره، فيبدو بذلك أسود.

الأرض كثقب أسود

إن تحول الكرة الأرضية إلى ثقب أسود يستدعي تحولها إلى كرة نصف قطرها (٠,٩ سم)، وكتلتها نفس كتلة الأرض الحالي، أي بمعنى انضغاط مادتها لجعلها من غير فراغات بينية في ذراتها وبين جسيمات نوى ذراتها، مما يجعلها صغيرة ككرة المنضدة في الحجم، ووزنها الهائل يبقى على ما هو عليه؛ حيث إن الفراغات الهائلة بين الجسيمات الذرية –نسبة لحجمها الصغير– يحكمها قوانين فيزيائية لا يمكن تجاوزها أو تحطيمها في الظروف العادية.

ويحد الثقب الأسود سطح يعرف باسم "أفق الحدث". وهنا يجب توضيح نقطة هامة جدا تسبب الخلط عند الكثيرين، وهي أنه يجب التفرقة بين الحجم الـذي تتكدس فيه المادة وبين أفق الحدث للثقب الأسـود والذي عنده لا يمكن لشيء أن يفلت من الثقب الأسـود. فمثلا لو تحولت الشمس إلى ثقب أسود فإن قطره عند أفق الحدث سـيصل فقـط إلى (٣ كلم) بينما ستتكدس كتلة الشمس كلها في نقطة في مركز الثقب الأسود، وبقية الحجم إلى أفق الحدث سـيكون عبارة عن فراغ، حيث تسقط كل المادة التي تعبر أفق الحدث في مركز الثقب. ولذلك فإن النظرية النسـبية العامة تعرف الثقب الأسود بأنه منطقة من الفضاء الفارغ الذي يحتوي في مركزه على نقطة التفرد، وعند حافته يوجد أفق الحدث.

ماذا يحدث عندما تسقط في ثقب أسود

عند هذه المسألة يُتوقَّع أن تكون درجة حرارة الثقوب السوداء عالية جدا، بـل يمكن أن تصل إلى ملايـين الدرجات. فعند الاقتراب من الحدود الخارجية للثقب الأسـود، والتي تسـمى بـ"أفق الحدث" تظهر الجاذبية، وكلما تم الاقتراب من المركز تزداد الجاذبية، وبالتالي تزداد قوة السـحب ومن ثم يُنتج الثقب الأسود ما يسـمى بـ"قوة المد والجزر" على جسمك، أي إن شـدة الجاذبية التي تعمل على رأسك، ستكون أقوى بكثير من الجاذبيـة التي تعمل على أصابع قدمـك (بافتراض أنك تدخل الرأس أولا). هذا في بادئ الأمر حتى يشـمل الفرق جسمك كله وتكون قد قطعت إرباً، لأن قوة المد والجزر ستكون أقوى من الروابط الكيميائية في جسـمك وتكـون حفنة من ذرات منفصلة، تلك الذرات سـوف تمتد إلى خط في مسير موكبـي كما وصف تايسون، فستكون مقذوف في السماء مثل معجون أسنان يجري الضغط عليها عن طريق أنبوب... ولا أحد يعرف ما يحدث لتلك الذرات بمجرد وصولها إلى المركز.

البحث عن ثقب أسود

لابد أنه سيكون ورد للقارئ سؤال مهم وهو كيف تم اكتشاف هذه الثقوب إذا كانت تتميز بهذه الشراهة التي تبتلع أي شيء، النجوم، الكواكب ،الغاز، كل شيء حتى الضوء لا يفلت منها. وإجابة هذا السـؤال أنه أمكن معرفة وجود الثقوب السـوداء بمراقبة بعض الإشعاعات، كالأشعة السينية التي تنطلق من المواد حين تتحطـم جزيئاتها نتيجة اقترابها من مجـال جاذبية الثقب الأسود وسقوطها في هاويته. وحديثا تمكن تلسكوب هابل من اكتشاف ثقوب سوداء، وقال العلماء إن الثقوب السوداء توجد في أغلب قلوب المجـرات الهائلة وتمتص المواد من قلب المجرة بقوة جذب جبـارة، إلا أن فريقا من علماء الفلك الأوروبيين أعلنوا في دورية نيتشـر العلمية أن ثقبا أسـود يبعد مسافة ٥ مليارات سـنة ضوئية لا يتوفر له دليل على أنه يستقر في مجرة. والسـنة الضوئية هي المسافة التي يقطعها الضوء في عام. ورغم أن أينشتاين يقول "إن محاولة البحث عن ثقب أسود يشبه تقريباً البحث عن قطة سـوداء في قبو فحم"، يقول العلماء إنه يوجد ثقب أسـود في قلب مجرتنا درب التبانة، وكتلته تساوي كتلة الشمس ٤ ملايين مرة –ولكن لا تقلق– فهو يبعد ٣٠ ألف سنة ضوئية، وهو بعيد بالنسبة إلينا أن نقع فيه.

الثقوب السوداء هل هي سوداء فعلاً؟

أطلق هذا السـؤال العالم البريطاني سـتيفن هوكنج. والحقيقة أن الثقب الأسـود في حد ذاته قد يكـون غير مرئي، بل وإن الثقوب السوداء ليست سوداء بهذا المعنى. فيمكن الحصول فيها على مواد بدرجة حـرارة عالية كافية للتوهج بل يكون مضيئا لدرجة يمكنها أن تضيء مليارات السنين الضوئية. وعند ولادة الثقب الأسود تنتج ومضة من الإشعاع المشرقة التي تظهر على نطاق واضح من الكون.. وأحسب أن هذه التسمية جاءت لأنه يبتلع بجاذبيته الجبارة الضوء المرئي. وكثير من الثقوب السوداء تختبـئ وراء التعتيم والغبار الكوني مما يصعب مراقبتها. فأقرب ثقب أسـود هو على بعد ١٦٠٠ سنه ضوئية، وهو بعيد كل البعد أن يؤثر علينا. وعادة يخلف الثقب الأسـود أشعة سينية تظل عالقة في الكون لعقود من الزمن تمكننا من مراقبة الثقوب السوداء والتنبؤ بوجودها.

وأخيراً ورغم تطور العلم الهائل لم يسـتطع الإنسان احتواء هذه الظاهرة بشيء من اليقين مع العلم أن النظرية النسبية أوجدتها رياضياً وما زال العلماء يجهلون عنها الكثير، وما زالت تحتاج إلى مزيد من الدراسة، ورغم ذلك فهي الظاهرة الأعنف في السماء. ■

(*) رئيس جمعية الفيزياء بجامعة وادي النيل / السودان.



الغروب والموت

نغربُ –كالشمس– ونموت،
ولكنَّ الرُّوحَ لا تموت...
جبالُ المَوج، سفينةَ نُوحٍ لم تُغرِق...
نوحيًّا فلْتكُنْ! وإلاَّ أغرقَتْكَ المويجةُ،
وحَطَّمَتْ سفينةَ نجاتك،
غرفةُ ماء أو نفخةُ ريح...
أتريد خلاصًا من طوفان الدنيا؟!
إذن: أَسْلِمْ مقادَ سفينتك لرَبِّ السَّفيْن،
والقائلِ للشَّيء "كُنْ" فيكون...
* * *

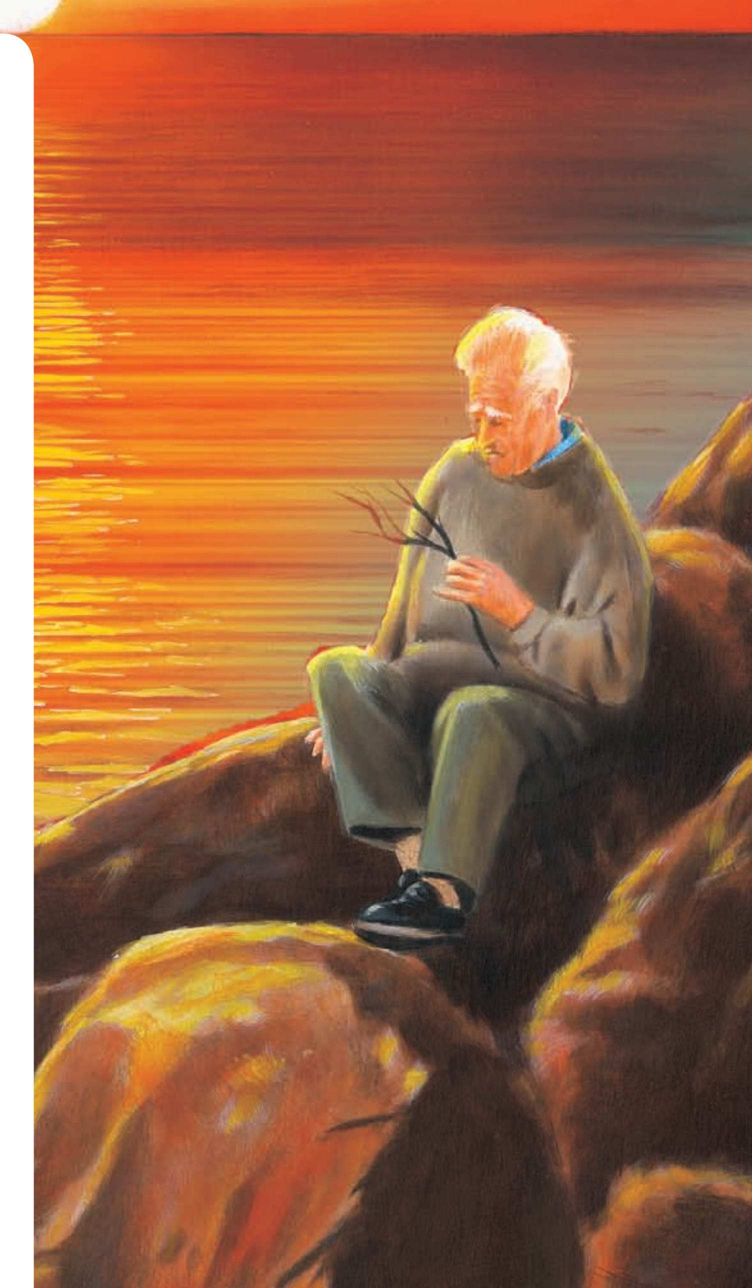
الوجه الآخر للموت

أ.د. مأمون فريز جرار *

للموت في مخيلتنا وواقعنا وثقافتنا الشعبية وجه قبيح. فهو فراق للأحبة، وفيه فناء للجسد بتغيبيه في التراب، وفيه انقطاع للعمل وطي لصفحات الحياة. ولذلك يصحب الموت حزن ويرافقه أسى، ويكون من بعده حداد، وتقام أيام عزاء يخفف الحزن فيها إقبال الناس بالزيارة والدعاء للميت.

إن الموت يرتبط لدى كثير من الناس بظاهر ما يحدث لجسد الإنسان وغياب ما وراء ذلك. ذلك أن المشاهد المحسوس المقطوع به هو أن الإنسان الذي مات يتغير؛ فالجسم يفقد الحياة والحركة والتفاعل والقدرة، كل ذلك يزول ويسلب منه ويتحول إلى جثمان، أي إلى جسد هامد يجثم مكانه ولا يتحرك بنفسه، ثم ما يتبع جثوم الجسد من مسارعة إلى دفنه في القبر، وما يرتبط به الدفن من تحلل الجسد وتلاشيه. فهل هذا هو الموت؟ هل الموت تلاش وفناء وانتهاء لمن كان ملء السمع والبصر والقلب؟

كثيرا ما يتوقف العقل البشري عند هذا المشهد ولا يتابع ما وراءه، إما عجزا عن الإدراك أو تقصيرا في استحضار المشهد الخفي الذي جاءتنا عنه نصوص صحيحة في كتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ تجعلنا نرى ما لا تراه العين من حقيقة الموت، وما يكون مع الميت بعد



انفصال الروح عن الجسد وانطلاقها إلى أفق لا ندركه بأعيننا ولا نسمع ما يجري فيه بآذاننا.

القرآن الكريم لم يتركنا لخيالنا ولا لثقافتنا الشعبية.. القرآن الكريم رسم لنا خط الوجود منذ بداية الخلق إلى أن يدخل أهل الجنةِ الجنةَ وأهل النارِ النارَ، مما يقدم نظرة شاملة لا ظلمة فيها، بل هي واضحة لا عوج فيها ولا ضباب ولا جدران ولا منعطفات. ولذلك حين ننظر إلى الموت بنور القرآن الكريم وفي نور الهدي النبوي، نجده مرحلة ضمن مراحل ممتدة في رحلة الخلود. فلئن تخلى الإنسان عن جسده فإن روحه باقية، لأن الروح تولد عند الموت ولادة جديدة. فكما خرج الإنسان من رحم أمه من قبل، يخرج من رحم الدنيا، ويتخلى عن مشيمتها إلى كون أرحب. ولابد أن نستحضر عند الموت مشهدين متلازمين: مشهد الجسد الذي خلق من التراب وإلى التراب يعود: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾(طه:٥٥)، ومشهد الروح التي تحررت من الجسد وانطلقت إلى البرزخ ولم تخرج من عالم وجود إلى عالم فناء.

لقد حدثنا القرآن الكريم عن أحوال الموتى، فالمؤمنون تتلقاهم الملائكة في أحسن حال: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلاَمٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(النحل:٣٢). وحدثنا القرآن الكريم عن الشهداء وبيّن أنهم أحياء عند ربهم يرزقون وأنهم فرحون بما نالوه من المنزلة والأجر، قال الله تعالى مبيّنا ذلك: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ۞ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(آل عمران:١٦٩-١٧٠).

وبيّن الرسول عليه وآله الصلاة والسلام، أن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر، تأكل من ثمار الجنة وتشرب من أنهارها وتأوي إلى قناديل معلقة بالعرش، وأرواح المؤمنين من غير الشهداء طيور خضر تأكل من ثمرات الجنة وتشرب من أنهارها، فليس الموت فناء. وأستذكر هنا كلمة رائعة قالها أبو حازم الأعرج، التابعي الجليل لسليمان بن عبد الملك حين سأله: ما لنا نكره الموت ونحب الحياة؟ فقال: لأنكم عمّرتم دنياكم وخربتم آخرتكم، فأنتم تكرهون الانتقال من العمران إلى الخراب.

وسأله سليمان: كيف القدوم على الله؟ فأجاب أبو حازم: أما المؤمن فكالغائب يرجع إلى أهله، وأما الكافر أو الفاسق فكالعبد الآبق يرجع إلى سيده.

ونستذكر قول رسول الله ﷺ في وصف الدنيا: "الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر" (رواه مسلم). فالمؤمن حين يخرج منها، حاله حال من يخرج من السجن، فهل يكون السجين حزيناً لفراق سجنه؟

ورحم الله بديع الزمان سعيد النورسي الذي ضرب لنا مثلاً للموت في "الكلمات"، مستمدا من بيئة الريف والمدينة بقوله:

"هب أنه في هذه القرية (بارلا) رجلان اثنان، أحدهما قد رحل تسعة وتسعون بالمائة من أحبته إلى إسطنبول وهم يعيشون هناك عيشة طيبة جميلة، ولم يبق منهم هنا سوى شخص واحد فقط وهو أيضاً في طريقه إلى الالتحاق بهم. لذا فإن هذا الرجل مشتاق إلى إسطنبول أشد الاشتياق، بل يفكر بها ويرغب في أن يلتقي الأحباب دائماً. فلو قيل له في أي وقت من الأوقات "هيا اذهب إلى هناك" فإنه سيذهب فرحاً باسماً..

أما الرجل الثاني فقد رحل من احبته تسعة وتسعون بالمائة، ويظن أن بعضهم فني، ومنهم مَن انزوى في أماكن لا ترى. فهلكوا وتفرقوا حسب ظنه. فهذا الرجل المسكين ذو داء عضال يبحث عن أنيس وعن سلوان حتى عند سائح واحد، بدلاً من أولئك جميعاً، ويريد أن يغطي به على ألم الفراق الشديد".

وقال رحمه الله في "اللمعات" مبيّنا ما وصل إليه من موقف من الموت بعد التفكر والتدبر في نور القرآن:

"فنظرت أول ما نظرت إلى ذلك الوجه الذي يُرعب الجميع ويُتوهم أنه مخيف جداً وهو وجه "الموت"، فوجدت بنور القرآن الكريم أن الوجه الحقيقي للموت بالنسبة للمؤمن صبوح منور، على الرغم من أن حجابه مظلم والستر الذي يخفيه يكتنفه السواد القبيح المرعب. وقد أثبتنا وأوضحنا هذه الحقيقة بصورة قاطعة في كثير من الرسائل، وبخاصة في "الكلمة الثامنة" و"المكتوب العشرين" من أن الموت ليس إعداماً نهائياً، ولا هو فراقاً أبدياً، وإنما مقدمة وتمهيد للحياة الأبدية وبداية لها. وهو إنهاء لأعباء مهمة الحياة ووظائفها ورخصة منها وراحة وإعفاء، وهو تبديل مكان بمكان، وهو وصال ولقاء مع قافلة الأحباب الذين ارتحلوا إلى عالم البرزخ.. وهكذا، بمثل هذه الحقائق شاهدت وجه الموت المليح الصبوح. فلا غرو لم أنظر إليه خائفاً وجلاً، وإنما نظرت إليه بشيء من الاشتياق".

هكذا ينظر المؤمن إلى الموت، وعلى عكس هذا الحال سيكون من لا يؤمن بالله واليوم الآخر، ويرى الموت جداراً وسداً لا يعرف ما وراءه. فإنه سيعيش في لوعة وحسرة وحزن لا ينقضي. فشتان بين المؤمن وغير المؤمن في النظرة إلى الموت. ■

(*) كاتب وأديب أردني.



الاضطرابات النفسية

بين نظريات الطب النفسي وحقائق القرآن الكريم

د. أحمد محمد شعبان *

الاضطرابات النفسية هي انحرافٌ في سلوك الإنسان وتصرفاته يؤدي به إلى الضعف والقلق والصراع النفسي، ويصبح عاجزاً عن ممارسة حياته بصورة سوية.

وأنواع الاضطرابات كثيرة، من أشهرها القلق والاكتئاب والوسواس القهري وتوهم المرض والخوف (الرهاب) والأرق.

ولا يزال علماء الطب النفسي يجاهدون لمعرفة الأسباب الحقيقية وراء هذه الاضطرابات التي أصبحت من أبرز ظواهر هذا العصر.

وتشير الإحصائيات التي أجريت في عدد من العواصم العالمية، إلى وجود أعداد هائلة من المرضى الذين يعانون من اضطرابات نفسية، وقدرت أعدادهم في الولايات المتحدة قبل نصف قرن بما لا يقل عن عشرة ملايين شخص. ورغم كل ذلك يقف علماء الطب النفسي -حتى الآن- عاجزين عن الوصول إلى الأسباب الحقيقية وراء هذه الاضطرابات. فكل ما توصلوا إليه لا يعدو أن يكون من قبيل النظريات التي وجدت لها في الواقع بعض الدعم. ويعتذرون عن تأخرهم في الوصول إلى الحقيقية بأن المعلومات

عنها لا تزال شحيحة نظراً لتعقد الظاهرة النفسية، وقدرة المصاب بها على المقاومة والتعمية.

وإذا كان هذا العذر قد يبدو مقبولاً من أولئك الغربيين الذين أقصوا الوحي من مصادر المعرفة وقصروها على الواقع المشاهد فقط من خلال التجريب، فالباحث المسلم غير معذور البتة، لأنه لم يقع في المعاناة التي وقعوا فيها والتي فرضها الصراع بين المنهج التجريبي ودينهم. فقد أثبتت الدراسات وبشكل لا يدع مجالاً للشك، التوافق التام بين ما ثبت من الحقائق العلمية عن طريق المنهج التجريبي وبين ما ثبت عن طريق القرآن الكريم.

وأبرز الأسباب التي استأنسوا بها حتى الآن أربعة هي:

أ- العوامل المتصلة بالتنشئة الأَسَرية: ويعبرون عنها أحيانا بالخبرات المؤلمة زمن الطفولة الباكرة، كحرمان الطفل من الحب والتفاهم والقبول، وعدم حمايته من رفقاء السوء أو من الخبرات السلوكية الضارة أو من المعارف المعوقة للنمو الأخلاقي السليم.

ب- العوامل الاقتصادية والاجتماعية: ويعبر عنها أحيانا بالأمن الاقتصادي والأمن الاجتماعي، كالتعطل عن العمل أو الانتماء إلى طبقة اقتصادية متدنية في مجتمع الفوارق الاقتصادية أو الشعور بالضعة الاجتماعية أو ضعف السند في مجتمعٍ معيارُ الترقي فيه الواسطةُ والمعارف والعائلة.

جـ- العوامل النفسية: ويختلفون في التعبير عنها تبعا للمدارس المتنوعة التي ظهرت في هذا العلم. فقد اهتم التحليليون النفسيون بالصراعات النفسية اللاشعورية، وزعموا أنها ناتجة عن دفعات غريزية أو عن مكبوتات باحثة عن اللذة دونما أي قيد أو عن صولة القيم المغالية التي تحاول -حسب زعمهم- أن تسلخ الفرد عن واقعه وتغربه عن هذا الواقع.

وذهب أصحاب المدرسة السلوكية إلى أن الصراع النفسي الناتج عن مواقف الاختيار التي يفشل فيها الفرد في اتخاذ القرار، والمعارف الخاطئة التي يحصل عليها، والوجدان السلبي نحو ما يحيط به من أحداث، تعتبر كلها عوامل تساهم في إحداث الاضطرابات النفسية.

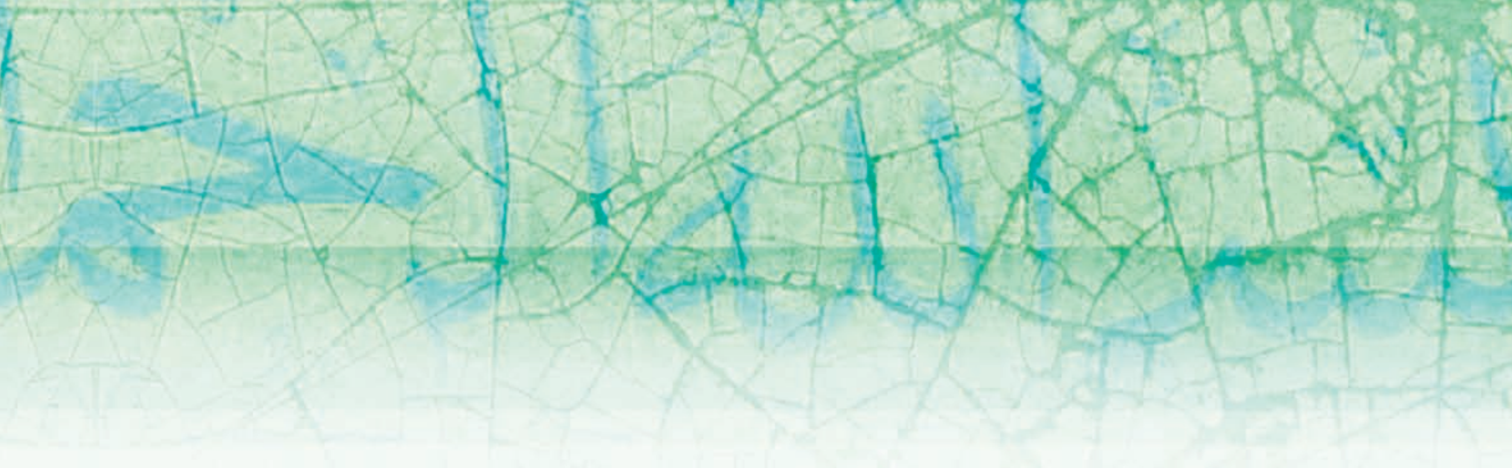
د- العوامل الوراثية: وقد اعتمدوا في تأكيدهم لدور الوراثة في إصابة الإنسان بالاضطراب النفسي على النتائج التي توصلوا إليها عندما وجدوا أن نسبة الإصابة بالفصام عند التوائم الحقيقية أكثر منها عند التوائم الكاذبة، كما أن احتمال إصابة الابن بالتبني من أبيه المصاب أقل وقوعا منه في أبنائه الحقيقيين.

هذه هي أهم الأسباب التي تؤدي إلى الإصابة بالاضطراب النفسي عند علماء النفس، وهي ليست على درجة واحدة من التأثير في الإنسان، بل إنهم اختلفوا في مستويات تأثيرها، وتشكل من هذا الاختلاف ثلاث نظريات:

١- النظرية البيوفسيولوجية

وقد اعتبر أصحاب هذه النظرية أن الوراثة هي السبب الأول والأخير في إصابة الإنسان بالاضطرابات النفسية وقالوا: "إن الوراثة هي التي تحدد خصائص الشخصية، وتحدد البيئة التي تنمو فيها، فارتقاء الإنسان السوي والشاذ محدد من قبل الجينات". وشخصية الإنسان عند أصحاب هذه النظرية كالفيلم الذي تم تصويره، والبيئة كالأحماض التي تستعمل في إظهار ما على الفيلم، وسلوكه مرآة لما طبع في شخصيته من خصائص وراثية مبرمجة في جيناته قبل أن يولد. وهذا يعني عندهم أن سلوك المنحرف رد فعل لتركيبه البيولوجي.

غير أن النتائج التي توصلوا إليها لا تزال مثار شك كبير، لأن معظم الفصاميين ليسوا من التوائم، وليس بين أيدينا ما يثبت انتقال الصفات النفسية من خلال الجينات.



٢- النظرية البيو-اجتماعية

ويركز أصحابها على دور الوراثة الأكبر في الانحرافات النفسية، لكنهم يعطون للبيئة دورا في ذلك فيقولون: "إن الخلل النفسي الوراثي المنشأ لا يفعل فعله إلا إذا تهيأت له ظروف بيئية ضاغطة".

وقد علق الدكتور كمال إبراهيم مرسي على النظريتين السابقتين بأنهما بالَغتا في تضخيم دور الوراثة وتهميش دور البيئة، حتى أصبح السلوك الإنساني جبريا مقدرا في الجينات، وسجل عليهما عددا من الملاحظات من أهمها:

- فشلهما في تفسير الانحرافات النفسية التي ليس لها سبب عضوي.
- فشلهما في تفسير عدم انحراف كثير من الأشخاص الذين يحملون شذوذا فسيولوجيا أو خللا بيولوجيا.

٣- النظرية التفاعلية

ويرى أصحاب هذه النظرية أن الاستعدادات النفسية التي تجعل الشخص مهيأً للانحرافات النفسية الظاهرة تتكون من تفاعل المعطيات الوراثية المعيبة، والظروف البيئية الضاغطة، فلا الوراثة وحدها كافية لنموها، ولا الظروف البيئية الضاغطة وحدها كذلك، بل لابد من تفاعل كلا الأمرين معا.

القرآن يقتلع الاضطراب النفسي

والمتأمل في النظريات المتقدمة يدرك أنها تدخل ضمن الإطار العام للعلم الذي حث القرآن الكريم على طلبه والوصول إليه في غير ما آية من كتاب الله ﷻ، بيد أنها تبقى ضمن دائرة احتمال الخطأ والصواب. وهذا الاحتمال يقف منه القرآن الكريم موقفا داعما لبذل مزيد من الجهد والدراسات فيه حتى يصل إلى درجة الحقيقة العلمية.

ويستثنى من إطار النظريات التي يدعمها القرآن الكريم تلك التي بناها أصحابها -بقصد أو بغير قصد- على أسس وقواعد تتناقض مع حقائق القرآن الثابتة.

ومن هذه النظريات، النظرية البيوفسيولوجية والتي اعتبر أصحابها أن الوراثة هي السبب الأول والأخير في إصابة الإنسان بالاضطرابات النفسية، وبالتالي فإن سلوكه المنحرف ما هو إلا رد فعل لتركيبه البيولوجي.

فهذه النظرية تتصادم مع مسلمات القرآن الكريم في تأكيده على منح الإنسان جزءاً من الحرية لاختيار الخير أو الشر، الفساد أو الصلاح، الهداية أو الضلال.. ومن ثم طلب منه السعي إلى سلوك طريق الهداية وتزكية النفس، ووعده الثواب على ذلك، ونهاه عن سلوك طريق الغواية واتباع هوى النفس، وأوعده العقاب على ذلك. قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى ۞ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۞ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ۞ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ۞ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾(النازعات:٣٧-٤١)، وقال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۞ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾(الشمس:٧-١٠).

وفي مقابل ما توصل إليه الطب النفسي من أسباب لحدوث الاضطرابات النفسية، نجد القرآن الكريم يشير إلى السبب الرئيس والأهم في إصابة الإنسان بالاضطراب النفسي، ألا وهو الجهل بالحقيقة المطلقة لهذا الوجود. وهذا الجهل ناتج عن الكفر بالله والبعد عن الركون إلى جنابه العظيم.

وقد عبر القرآن الكريم عن هذه الحقيقة بألفاظ مختلفة. تأمل على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾(الكهف:٢٨)، وقوله سبحانه: ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾(البقرة:٢٥٧)، بل تأمل معي قوله تعالى وهو يسبر أغوار النفوس ليصف لنا حقيقة المؤمن بالله وما يتمتع به من أنوار، وحقيقة الكافر به وما يخيم على قلبه من

ظلمات فيقول: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(الأنعام:١٢٢). ومن هنا كانت حياة القريبين من الله مليئة بالسعادة الحقيقة مهما اكتنفها من مصاعب أو ظروف، بينما نجد أن حياة البعيدين عنه سبحانه في شقاء وضنك مهما تيسر لها من المتع والملذات: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾(طه:١٢٣-١٢٤).

ولست بحاجة لأن أُجري أية إحصائية أو دراسة تحليلية لمعرفة مدى انطباق هذه القاعدة الكلية على الواقع، ليس من مبدأ إيماني العميق بما يقوله القرآن الكريم فحسب، بل بما أشاهده وأعايشه وأعاينه كل يوم من الوقائع القريبة والبعيدة وعلى امتداد العام بأسره.

الإيمان يجلب الطمأنينة

ومن هنا يقول سيد قطب رحمه الله: "والحياة المقطوعة الصلة بالله ورحمته الواسعة ضنك مهما يكن فيها من سعة ومتاع.. إنه ضنك الانقطاع عن الاتصال بالله والاطمئنان إلى حماه، ضنك الحيرة والقلق والشك، ضنك الحرص والحذر؛ الحرص على ما في اليد والحذر من الفوت، ضنك الجري وراء بارق المطامع والحسرة على كل ما يفوت، وما يشعر القلب بطمأنينة الاستقرار إلا في رحاب الله، وما يحس راحة الثقة إلا وهو مستمسك بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها.. إن طمأنينة الإيمان تضاعف الحياة طولا وعرضا وعمقا وسعة، والحرمان منه شقوة لا تعدلها شقوة الفقر والحرمان".

يقول "كارل يونج" أحد المحللين النفسيين: "استشارني في خلال الأعوام الثلاثين الماضية أشخاص من مختلف شعوب العالم المتحضرة. وعالجت مئات كثيرة من المرضى، فلم أجد مريضا واحدا من مرضاي الذين كانوا في المنتصف الثاني من عمرهم -أي جاوزوا سن الخامسة والثلاثين- من لم تكن مشكلته في أساسها هي افتقاره إلى وجهة نظر دينية في الحياة. وأستطيع أن أقول إن كل واحد منهم قد وقع فريسة المرض لأنه فَقَدَ ذلك الشيء الذي تمنحه الأديان القائمة في كل عصر لأتباعها، وإنه لم يتم شفاء أحد منهم حقيقة إلا بعد أن استعاد نظرته الدينية في الحياة".

ومن أراد الاطلاع على شواهد هذه الحقيقة فليقرأ بتمعن تاريخ المجتمع الإسلامي الأول الذي عاشه النبي ﷺ وصحابته الكرام رضوانه الله عليكم أجمعين. فقد سطرت لنا كتب الأحاديث النبوية والسيرة والتاريخ أن هذه الثلة من الناس قد وصلت في عيشها إلى ذروة الاطمئنان النفسي، رغم كل الأخطار التي كانت تحدق بها، والظروف الصعبة التي كانت تمر عليها من جوع وفقر وشدة.. ولم يسطر لنا التاريخ في مراحله الطويلة أن جماعة من الناس استطاعت من فرط الاطمئنان النفسي أن تنام بين صفي القتال رغم قلة عددها وعدتها وكثرة عدوها وشدته سوى هذه الثلة التي ملأت قلوبها إيمانا بالله وحبا له واعتمادا عليه.

والسؤال الذي يفرض نفسه في نهاية المطاف هو: لماذا أغفل علماء الطب النفسي هذه الحقيقة رغم اعترافهم الصريح بعدم الوصول حتى الآن إلى الأسباب الحقيقية التي تكمن وراء الاضطرابات الإنسانية؟

والجواب يكمن كما أشرنا في بداية الحديث في التصور المعرفي الذي هو بمثابة العقيدة التي يفسر الباحث أو الطبيب من خلالها الظاهرات التي يدرسها، ويشتق منها المسلمات التي يستند إليها في بحثه.. وهذه العقيدة أو هذا التصور -كما قلنا- إذا كان صوابا وجّه الباحث وجهة صحيحة، وإذا كان منحرفا فالنتائج التي يقود إليها منحرفة.

والحديث عن مكمن الانحراف في هذا التصور يتلخص في إنكار الوحي الصادق الذي أدى إلى حرمان الفكر الغربي كثيرا من الحقائق والعلوم التي جاؤوا بها. ■

(*) رئيس قسم البحوث بمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة / السعودية.

سلاطين بني عثمان

قلوبٌ احترقت في حب الرسول ﷺ

ضياء دميرال *

لقد حملت الدولة العثمانية منذ أن بزغ فجرها في القرن الثالث عشر، هموم الأمة الإسلامية بكل فخر واعتزاز، وسَعَت بكل ما أوتيت من قوة إلى رعاية هذه الأمة وتأمين أمنها وراحتها وسلامتها في كل نواحي الحياة. كما حرصت كل الحرص على نصرة الإسلام ونشر مبادئه وقيمه في أرجاء المعمورة، ثم رفعِ رايته خفاقة على جميع الأقاليم والبلدان... وما إن نتجول بين صفحات التاريخ ونتفحص المعلومات عن حياة سلاطين آل عثمان، حتى نجد معظمهم دائماً في مقدمة الصفوف يمتطون أحصنتهم ويقاتلون في ميادين الحرب ببسالة منقطعة النظير. وعندما لم يقدروا على المشاركة في حرب ما، عدّوا أنفسهم عديمي الحظ وفاضت عيونهم بالدموع وامتلأت قلوبهم بالحزن والأسى.. إنهم نذروا أنفسهم للإسلام، واعتبروا الدفاع عن الإسلام وقيمه مسؤولية عظمى لابد أن تؤدى، فساروا قدماً أمام الأمة بصدق وإخلاص مقتدين بنهج رسولهم ﷺ ومتبعين سنته أفضل اتباع.

ومما يجدر ذكره أن السلاطين العثمانيين تربوا وترعرعوا منذ نعومة أظفارهم على حب الرسول ﷺ والتأسي بسنته الطاهرة.. نقشوا اسمه ﷺ على قلوبهم، وأمضوا معظم حياتهم على ظهور الخيول من أجل أن تبسط الرسالة المحمدية أجنحتها وتحلق في سماء البشرية، ولكي يشع نوره ﷺ في العالم كافة. هذا الحب الذي جرى في أرواحهم وتغلغل في أعماقهم، حوّلهم إلى أناس يحترمون كل شيء يخص الرسول ﷺ. ونتيجة لهذا الحب نشأ عندهم مظهر من مظاهر الجهاد الروحي، فسعوا جاهدين إلى فتح القلوب أولاً ثم إلى فتح القلاع والأراضي، بغية أن ينثروا -كما أمرهم دينهم الحنيف- بذور القيم والمبادئ التي تنبثق منها الحضارة الإنسانية وينبت منها منهج الحياة والأخلاق المبنية على الحب والتسامح والكرامة.

احتل الرسول ﷺ في أفئدة هؤلاء الناس الطيبين مكانا رفيعاً خاصاً، فأصبح اسمه ﷺ يتردد على ألسنتهم في كل لحظة؛ في حياتهم اليومية، وأشعارهم المدحية، وأذكارهم الشخصية.. كما أن هذه المدائح الشريفة التي نقشوها على صفحات التاريخ بأقلامهم النيرة لا زالت لسان عشاق الرسول ﷺ وترجمان مشاعرهم حتى يومنا هذا.. ونورد فيما يلي بعض الأمثلة الواقعية عن أولئك الأفذاذ وعن حياتهم المثالية التي عاشوها..

ظلال حزن، وسكون كئيب قد خيم على جنبات الغرفة.. رجال القصر ملتفون حول سرير السلطان وهو يرقد على فراش الموت.. الكل من حوله يترقب حركة شفتيه.. فتح السلطان مراد الثاني عينيه ليلمح وزيره، قال بصوت خافت:

– اقرأ يا إسحاق، اقرأ وصيتنا!

فبدأ إسحاق باشا يقرأ الوصية بصوت عال:

"بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. توكلت على الله رب العرش العظيم. كل نفس ذائقة الموت. فلا تغرنّكم الحياة الدنيا ولا يغرنّكم بالله الغَرور.. أما بعد؛ أوصيكم بأن توزعوا ثلث أملاكي في ولاية "صاروهان"؛ على أن يكون ٣٥٠٠ قطعة ذهبية منها إلى فقراء مكة المكرمة، و٣٥٠٠ قطعة ذهبية إلى فقراء المدينة المنورة. ووزعوا ٥٠٠ قطعة أخرى على الذين يكثرون من تلاوة القرآن الكريم من أهالي مكة المكرمة في حرم بيت الله ثم يرددون كلمة التوحيد "لا إله إلا الله" ٧٠ ألف مرة ويهدون ثوابها للموصي، وأوصيكم أن توزعوا ٢٥٠٠ قطعة

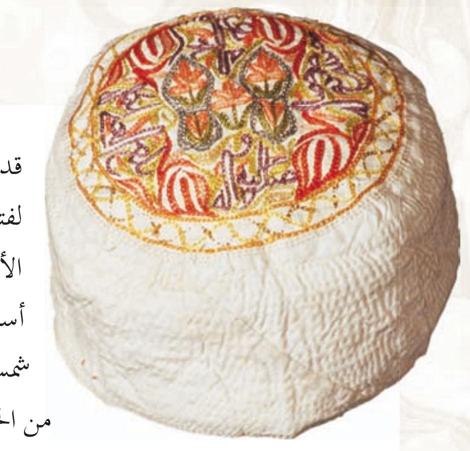


منمنمة للسلطان سليمان القانوني

ذهبية من أملاكي هذه، على الذين يكثرون من تلاوة القرآن الكريم ثم يرددون كلمة التوحيد "لا إله إلا الله" ٧٠ ألف مرة في قبة الصخرة بساحة المسجد الأقصى".

وإذا ما أمعنا النظر في هذه الوصية نرى بوضوح حب السلطان مراد الثاني لله ﷻ ولرسوله ﷺ. لأن أراضي الحجاز (مكة المكرمة-المدينة المنورة) والقدس (المسجد الأقصى) في تلك الآونة لم تكن في حوزة الدولة العثمانية بعدُ. وما هذا إلا تعبير عن الحب الذي سكن بين ثناياه وأترع قلبه. فهو لحرمة الأقدام المباركة التي لمست تربة تلك الأراضي، ولحرمة أهالي تلك المنطقة، أبدى هذا السخاء وجاء بهذا العطاء.

العام ١٤٥٣... القائد فتىً في ريعان شبابه يقود جيشه في ملحمة فتح إسطنبول ونشر الإسلام.. وهو صاحب بشارة الرسول ﷺ.. نصب خباءه أمام أسوار إسطنبول ليفتحها بإذن ربه في فجر يوم الجمعة.. يخرج القائد العظيم في إحدى الليالي إلى شيخه "أقْ شمس الدين" ويبدي رغبته في العثور على قبر الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري ؓ الذي قام باستضافة الرسول ﷺ في بيته عقب الهجرة النبوية... وكان أبو أيوب الأنصاري



قد خرج مع جيش المسلمين لفتح إسطنبول في عهد الأمويين واستشهد تحت أسوارها. فيخرج "أقْ شمس الدين" برفقة السلطان من الخيمة. ويصلا إلى ساحل القرن الذهبي، وهناك يشير الشيخ إلى مكان قريب من الأسوار ويقول: "ها هنا القبر يا جلالة السلطان". فيأمر السلطان محمد الفاتح بإنشاء جامع وضريح في هذا المكان على الفور. وبعد الفتح يبنى الجامع والضريح.. نصل من هذه القصة إلى نتيجة أن السلاطين العثمانيين أبدوا حبا جماً ليس للرسول ﷺ فحسب، بل لأصحابه الذين حملوا رائحته العطرة ورائحة بلدته الطاهرة أيضاً.

ولقد ورّث السلطان محمد الفاتح هذه المحبة لابنه السلطان بيازيد الثاني أيضاً... يقوم السلطان بيازيد خان بزيارة صديقه الذي يحبه في الله "بابا يوسف" لتوديعه قبل ذهابه إلى الحج، يسلّمه كمية من الذهب ويقول: "هذا ما رزقني الله به من عرق جبيني. ولقد ادخرته من أجل صيانة قناديل الروضة المطهرة. عندما تقف في حضرة الرسول ﷺ أريد منك أن تقول: يا رسول الله، خادمك الفقير "بيازيد" يقرئك السلام ويقول لك: إنه قد أرسل هذه القطع من الذهب لشراء زيت قناديل الروضة، فاقبلها منه..".

وفي عهد السلطان سليم الأول نرى أن هذا الحب النبوي يكتسب بُعداً آخر؛ حيث تنضم أراضي الحجاز في عهده إلى الدولة العثمانية ويتوحد العالم الإسلامي تحت راية واحدة.

وسرعان ما يذيع صيت السلطان سليم في العالم الإسلامي، ويبدأ الخطباء في المساجد يقرأون الخطب باسمه مستخدمين لقب "حاكم الحرمين". إلا أن السلطان سليم لم يكن راضياً عن هذا اللقب أبداً. وفي يوم من الأيام وهو يصلي صلاة الجمعة في الجامع الكبير بحلب، يسمع هذه اللفظة من خطيب الجامع، فيهب مسرعا ويقول: "لا لا، لستُ حاكماً للحرمين، بل خادماً لهما"، فيعدّل الخطيب كلامه كما أشار به السلطان. وبعد الصلاة يقوم السلطان بتقديم قفطانه هدية إلى الخطيب وشكراً له. فبهذا يشهد له التاريخ مرة أخرى احترامه وحبه العميق تجاه سيدنا رسول الله ﷺ.

والجدير بالذكر أنه كان من بين سلاطين آل عثمان مَن رأى الرسول ﷺ في المنام. وبالأوامر والإشارات التي تلقّاها منه ﷺ تمكّن من فتح بلاد عديدة بإذن الله ﷻ. والدليل على ذلك رؤية السلطان سليمان القانوني، إذ رأى الرسول ﷺ يقول له: "إذا ما فتحت قلاع بلغراد ورودوس وبغداد، فقم بإعمار مدينتي". فسرعان ما يأمر السلطان بإعمار أراضي الحرمين ووضع مشاريع الإسكان لها. حتى إنه ترك وصية يطلب فيها أن يُنشأ من ثروته الخاصة وقفٌ خيري يلبي حاجة المياه لحجاج بيت الله الحرام. وبعد وفاته قامت ابنته "مهرماه سلطان" بتحقيق وصيته وأمرت بجلب مياه عين زبيدة من عرفات إلى مكة المكرمة. وقد نرى هذا القائد العظيم الذي وقف العالم كله إجلالا واحتراما له، يتوجه في إسطنبول نحو القبلة ويناجي بلسان الحب رسول الله ﷺ منشداً:

يا حبيب الله يا ضياء العالمين

ببابك العالي وقف العاشقون

فإن داء لساني بذكرك يشفى

فؤادي المكروب بك يفرح

وقلبي المجروح أنت ضماده

و لم تُنقِص الأيام من بحر عشقهم للرسول ﷺ مثقال ذرة، بل تضاعف وتضاعف حتى تحول إلى محيط لا حد له ولا قرار.. السلطان أحمد الأول، يصعد العرش في وقت حرج، حيث تسود الاضطرابات وتنتشر الفوضى في معظم الأراضي العثمانية. إلا أن هذا السلطان الشاب المهموم كان مفعما بالروح المعنوية العالية. فراح يبحث عن الدواء في عصره الذي يعيش فيه ولكن دون جدوى، فيقرر في نهاية المطاف أن يرجع إلى الماضي ويبحث عن غرضه هناك.. فيخرج في إحدى الليالي خفية إلى جناح الأمانات المقدسة بقصر طوب قابي... يمسك نعل الرسول ﷺ ويضمه إلى صدره ثم يقول بحرقة قلب:

ليتني أحمل نعلك الشريف دائماً على رأسي كالتاج

يا صاحب النعل الكريم، يا وردة حديقة الأنبياء

ليتني أمسح وجهي دائماً على أثر قدمك يا وردة الورود..

ومنذ ذلك الوقت أخذ السلطان أحمد الأول يحمل صورة لأثر القدم النبوي الشريف داخل قفطانه. ونراه في موضع آخر، يحترق بلهيب العشق النبوي هذا ويقول:

فما عاد الفؤاد يتحمل فراقك

وما عاد اللسان يتحرك بسواك

غدا حبي عشقاً



فأبكاني أنا الفقير، حتى نفدت دموع قلبـــي

وما بقيت فيه دمعة، كمثل يعقوب عليه السلام.

وكان السـلطان عبد العزيز أيضاً من عشاق النبي ﷺ. ففي إحدى الأيام وصلت رسالة إلى القصر من المدينة المنورة، وكان السـلطان في تلك اللحظة مصاباً بمرض شديد أقعده في الفراش. فتردد رجال الدولة بادئ الأمر في تقديم الرسـالة إلى السـلطان عبد العزيز بسبب مرضه هذا، ولكنهم كانوا يعرفون في الوقت نفسه، مدى حساسيته تجاه المدينة المنورة وحبه لهـا، فاضطـروا إلى تقديمها له في نهاية الأمر. وعندما اقترب الوزير منه وأخبره أن رسـالة وصلت من المدينة المنورة، لمعت عينا السلطان وطلب من الوزير ألا يبدأ بالقراءة حتى يأمره بذلك، ثم قال لمن حوله: "ارفعوني.. فلا يمكن أن أسمع رسالة وصلت من الأراضي المقدسة وأنا نائم". واستمع إلى ما في الرسالة واقفا على رجليه رغم وطأة المرض.. ومما يجدر ذكره هنا، أن السلطان عبد العزيز كان لا يتناول أي ملف أو أوراق قادمة من المدينة المنورة دون أن يجدد الوضوء. لأن هذه الأوراق بالنسبة له تحمل غبار بلدة الرسول ﷺ ورائحته العطرة. لذا كان يقبلها أولاً ثم يضعها على جبينه ثم يشمها بحرارة ثم يفتحها ليقرأها.

تولى السـلطان عبد الحميد الثاني الخلافة في وقت كانت فيه الدولة العثمانية في منتهى السـوء والاضطراب، سـواء في الأوضاع الداخلية أو الخارجية.. وفي وسط هذه التيارات والأمواج المتلاطمة تقلد السـلطان عبد الحميد الحكم، وبدأ في العمل بكل ما أوتي من قوة ليوحد المسـلمين من جديد تحت راية الإسـلام. فقام في عهده بتنفيذ مشاريع مهمة غاية الأهمية، منها إنشـاء خط حديد الحجاز الذي امتد من إسطنبول إلى المدينة المنورة. وكانت الغاية العظيمة في ذلك، الدفاع عن الأراضي المقدسـة مـن هجمات العدو ثم تأمين راحة الحجاج خلال رحلتهم إلى الحرمين الشريفين.

ومما نريد لفت الأنظار إليه في هذا الصدد أنه، قد جرى إنشـاء الخط الواقع بين مدائن صالح والمدينة المنورة كله بأيدي المهندسين والعمال المسلمين فقط، لأن هذا الجزء كان داخل حدود منطقة الحرم. وعندما وصل الخط إلى المدينة المنورة في ٣١ أغسطس من عام ١٩٠٨، أمر السـلطان عبد الحميد الثاني بأن يُمَدّ اللباد على الخط في آخر ثلاثين كيلومتراً منه؛ كما أن مقطـورة القطار كانت عند وصولها إلى المدينة المنورة تخفض من سـرعتها وتقترب من رصيف المحطة ببطء حتى لا تزعج الرسـول ﷺ. ثم ينـزل الركاب من القطار ماشين على أطراف أقدامهم بتأدب واحترام... أما اللباد الممدود على سكة الحديد فيتم غسله بماء الورد خلال كل يوم في ساعات معينة. وذلك احتراماً لتلك الأراضي المباركة وتقديساً لها.

لقد حمل سـلاطين بني عثمان من أولهم إلى آخرهم، مشـاعر عذبة وحباً فياضاً ولهفة شديدة إلى الحبيب المصطفى ﷺ وإلى القرب منه. ولعل أهم ميراث تركوه لنا هو هذا الحب النقي الصافي. ■

(*) كاتب وباحث تركي. الترجمة عن التركية: نور الدين صواش.

المكرِّسون أنفسهم للصلاح والإصلاح قد ينسون منافعهم الشخصية، ولكنهم لا ينسون أضأل منفعة تخص الأمة.

***

الجهاز العضلي يتكلم

أ.د. عرفان يلماز *

عزيزي عبد الله.. أريد أن أتحدث معك قليلاً.. أنا جهازك العضلي الذي تتحرك به وتصول أنى شئت. كما تعلم إن الصخور تتميز بالصلابة، وكذلك الأشجار كائنات حية وصلبة في الوقت نفسه، ولكنها غير قادرة على التحرك، مغروسة في الأرض لا تهتز ولا تتحرك، لأنها لا تملك جهازًا يمكّنها من الحركة. أما أنت فيا عبد الله.. فقد خُلقتَ في أحسن تقويم، وتستطيع التحرك كيفما شئت. وإن كانت الحيوانات كلها قادرة على التحركِ -بدرجات مختلفة- بواسطة أنسجتها العضلية، فاعلم أنك لم تخلق لتكون كالحيوانات تسعى وترعى لتلبي رغباتها وشهواتها فحسب دون أي إدراك ووعي، أو لم تُخلق لتكون كالشجر مغروساً في الأرض عاجزاً عن التحرك والتنقل، إنما جعلك الله خليفة له في الأرض، تسيح فيها وتمشي في مناكبها، خلقك الله لتتعلم وتكشف عن المكنونات والمخبوءات في هذا الوجود، ولتنثر بذور القيم الفاضلة وتقيم الحضارات العريقة. ولكن من أجل أن تؤدي مهمتك هذه بحق، لابد -قبل كل شيء- أن تملك الحرية في تغيير أوضاعك وتبديل أماكنك، أي لابد من أن تملك قدرة للتحرك كيفما شئت. ولهذا جعلني الله لك جهازًا كاملاً يتكّون من ملايين الخلايا ومئات العضلات، ووضعني لخدمتك فقط.

ومن أهم خاصيّاتي، هي امتلاكي الخلايا التي تتحرك باستهلاك السكريات -كمحرك السيارة تماما الذي يعمل بحرق البنزين- ولديّ ألياف عضلية قادرة على الانقباض والانبساط داخل خلاياها، وهي تمنح هذه الخلايا القدرة

على القصر والاستطالة التي منهما تتولد قوة السحب. ونتيجة لهذه القوة أتمكّن من تحريك العظام التي أتصل بها أو من تحريك عضو جسم آخر وأحدثُ بذلك تغييرات ميكانيكية. واعلم عزيزي عبد الله، أن عظام جسدك وسائر أعضائك -عدا قلبك- لا تملك قدرة التحرك من تلقاء نفسها، بل تستجيب لتوجيهات عضلاتي فقط. وقد تعني العضلة؛ العضو والنسيج معا. ولكوني نسيجًا عضليًّا أقوم بالمحافظة على خاصية الانقباض على مستوى الأعضاء والأجهزة، ولكوني خُلقتُ في كل أطراف الجسم، فقد تم تكويني من عدد كبير من الحزم التي تحتوي على الألياف العضلية الطويلة الرفيعة. وحتى تفهمني بشكل أفضل، سأشرح لك بنْية العضلة وتركيبها بطريقة بسيطة.. لنعتبر بكرة الخيط الرفيع هي الخلية العضلية، ثم لنجمع عددا كبيرًا من خيوط هذه البكرة ونصنع منها "فتلة" واحدة رفيعة، ثم لنجمع عددًا من هذه الفتل ونصنع منها خيوطًا نسيجية، ثم لنجعل من هذه الخيوط النسيجية حبلاً غليظًا. والآن يمكنك أن تتصور ذلك الحبل الغليظ كعضلة من عضلات جسدك. إن أليافي العضلية تتكون من خيوط بروتينية -بدلاً من الألياف القطنية في بكرة الخيط الرفيع- وهي خيوط الأكتين الرفيعة وخيوط الميوسين الغليظة، وهما اللذان يمنحان الليفة العضلية قدرة الانقباض. وقد اصطفتْ هذه الخيوط مقابل بعضها البعض كأسنان مشطين، وعند الانقباض تنزلق خيوط الأكتين تجاه خيوط الميوسين، ويتم بذلك الانقباض العضلي. ومن ثم تظهر عملية الانقباض والانبساط، تمامًا مثلما تتداخل وتتباعد أسنان المشط مع أسنان مشط آخر.

عزيزي عبد الله.. شرحتُ لك خصائص تلك البنية العضلية العظيمة ويسرتُ عليك فهمها، فصوّرتها لك بالخيوط والأحبال.. ولكني أسألك الآن، هل يمكن أن تتشكل تلك البنية العظيمة من تلقاء نفسها؟ وهل يمكن أن تتكون صدفة؟ إن أصغر قطعة من القماش لم تكن لولا ماكينة تنتجها ويد صانع تبدعها. فما بالك إذن، بكل عضلة من عضلات جسدك؛ تلك التي تتألف من ملايين الألياف العضلية وتحيط كل عظمة من عظامك، كما أنها

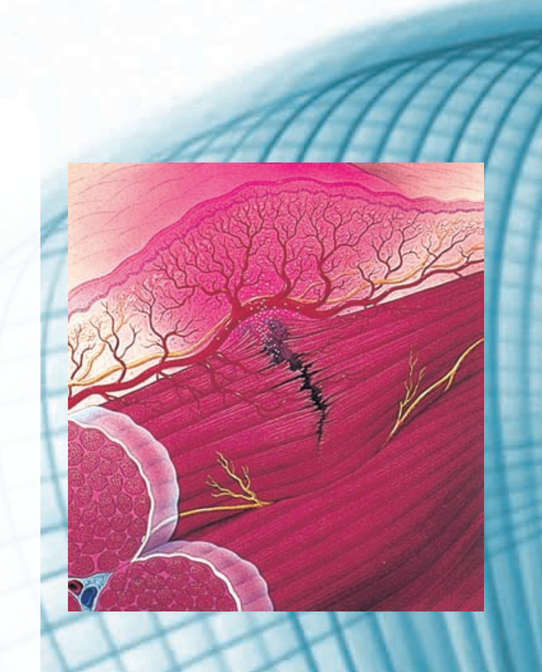


تقيم جسدك وتسويه.. أتراها تلك الألياف العضلية قد نُسجت بهذا التقدير وتموضعت بهذه الحكمة حتى صارت في أحسن تقويم دون صانع يصنعها، أم تراها قد خلقت عبثًا؟

يختلف شكل وحجم عضلاتي التي تتألف من الحزم المتكوّنة من آلاف ألياف العضلية، حسب موضعها وحسب العظام التي تتصل بها والمهام المنوطة بها. فهناك "العضلات الهيكلية الحمراء" التي تقوم بتحريك عظام الساقين والذراعين، وهي عضلات طويلة مدببة الطرفين منتفخة الوسط. وهناك أيضا "عضلات ملساء" وهي التي تربط أعضاء جذعك وعظامه، وتكون ذات سطح أكثر اتساعًا واستدارة.

فأما العضلات الحمراء فتوجد حول الهيكل العظمي وتتميز بقوتها الشديدة أيًّا كان شكلها وحجمها، كما أنها تعمل حسب طوعك وتحت قيادتك. فأنت تستخدم دائمًا عضلاتي "الحمراء المخططة" في مشيك وجريك وقيامك وقعودك. تتألف هذه العضلات من بنية نسيجية "مغزلية"، ولذا تُرى تحت الميكروسكوب عضلات مخططة، وهي تشكل القسم الأكبر من عضلات جسدك.

وأما النوع الآخر فهو "العضلات الملساء" أو "العضلات اللاإرادية"، أي العضلات التي لا تستجيب لأوامرك. إنها تتحرك ببطء، وفترة انقباضها تكون



طويلــة ودون أي تعب، وإنما تبطن جــدران قنواتك الهضمية وشــرايينك الدموية ومســالكك البوليــة. إن هذه العضلات في الحقيقة لا ســلطان لها عليك في ذهابك أو إيابــك، لأنها لا تعمل تحــت قيادة هيكلك العظمي، فلا همَّ لها ولا شــاغل غير حركــة أعضائك الداخلية. وقلبك أيضا –رغم اختلاف نســيجه العضلي المخطط– من الأعضــاء التي تعمل خارج إرادتك. لذا عليك أن تعرف، أن المقصود من الجهاز العضلــي هو تلك العضلات المخططة التي تؤدي دورهــا في حركة الهيكل العظمي.

لقد زوّد الله جســدك بعديد من العظام لتمنحه اســتقامته واستواءه، وجعل بين العظام مفاصل لتمنحه مزيدًا من الحركة والانســيابية، بيد أن هذه المفاصل تعجز عن الحركة بمفردها. فعلى سبيل المثال؛ مهما بلغ باب أو نافذة من اكتمال الصنعة وحسن التشــكيل، فإنه يعجز عن الانفتاح أو الانغلاق دون قوة دافعة أو ساحبة. هذا الأمر ينطبق على المفاصل تماما، إذ ليس بين المفاصل مفصل يتحرك دون قوة خارجية، وعليه فــإن جهازك العضلي هو الذي ينتج القوة التي تحــرك مفاصلك وتوجهها. فهناك في نظام الحركة حــوالي (٣٤٠) عضلة. ومن هذه العضلات ما تؤدي أكثر من مهمة.. وإذا مــا أخذنا هذا الجانب بعين الاعتبار، ندرك أن عضلات الجســم تنجز (٥١٠) مهمة مختلفة. كما أن معظم هذه العضلات تحرك العظام والمفاصل، وأما بعضها الآخر فيمكن أن يؤدي وظائف مختلفة بعيدة عن العظام، كعضلات الجبهة والوجه والجفون وعضلات البطن.

ولقــد أصبح من المعتاد تســمية العضلة وفق ما تقوم به مــن مهام داخل الجهاز العضلي، فيطلق مثلا اسم الضامة (Abductor) على العضلة التي تقرب جزءً من أعضاء الجســم إلى الجزء الآخر منه، والباسطة (Extensor) على العضلة التي تسحب جزءً من الهيكل العظمي، والقابضة (Flexor) على العضلة التي تثني جزءً منه، والرافعة (Levator) على العضلة التي ترفع جزءً من الهيكل العظمي، والكابة (Pronator) على العضلة التي تُديــر إلى الداخل جزء منه، والــدوارة (Rotator) على العضلة التي تلف ذلك الجزء، والاستلقائية (Supinator) على العضلة التي تديره إلى الخارج.

إن أجزائي العضلية تتســم بالقوة والمرونة، وهي مــا تجعلك قادرًا على أداء كل حركة يتطلبها جســمك براحة ويســر. كما أن أجزائي العضلية تتميز أيضًا بقدرتها علــى تقوية ذاتها إذا ما ارتبطت بأداء منظم. وكما هو معلوم فإن هدف كل رياضي في منافسة رياضية يتمثل في تقوية عضلاته وجعلها أكثر تحملاً. وأليافي العضلية تزداد حجما وقوة إذا ما قامت بجهود مكثفة وســريعة علــى فترات طويلة. وبهذه الكيفية أكتســبُ القوة التي تمكنني من أداء المزيد من الأعمال والقدرة على الانقباض السريع. ولكن عليك ألا تنســى أن العوامــل الوراثية أيضا تلعب دورا مهما في هذا الانقباض عدا التدريبات الرياضية والمجهودات الشاقة. ومن هنا فليس ثمة قاعدة تقول بأن كل متدرب ســيصبح رياضيًّا بارزًا، فالأمر كله يرجع إلى مدى ملائمة عضلات الرياضي وعظامــه جينيًّا، فهي وحدها التي تمكنه من الارتقاء إلى أعلى المســتويات من خلال

التدريب، ومن دونها لا يحق لنا أن ننتظر من رياضي -لا يمتلك بنية عضلية تتلاءم مع رياضة ما- أن يصبح بطلاً رياضيًّا. ولئن بدت عضلاتي للوهلة الأولى من الخارج عضلات ذات شكل ونمط واحد، إلا أنها تتسم بسمات مختلفة حسب توزيع ألياف الداخلية وكثافتها، حيث تختلف انقباضات وانبساطات ألياف العضلية فيما بينها من حيث السرعة والبطء. فالحركات التي يعتاد كل شخص القيام بها، والرياضات التي يمكنه ممارستها تختلف أيضا حسب توزيع هذه الألياف العضلية. فثمة فرق في حجم وتوزيع الألياف العضلية الخاصة بين العدّاء الرياضي الذي يقطع مسافات قصيرة مثل (١٠٠ متر) وبين العدَّاء الذي يقطع مسافات متوسطة (١٠,٠٠٠ متر).

إن انقباض أي عضلة يكون في نوعين مختلفين؛ إذا كانت القوة التي تؤثر على عضلتي أكثر من مقاومة نسيجها فإن توتر العضلة يظل ثابتا ويقصر طولها (العضلة). وقد تسمى هذه الحالة بـ"متساوي التوتر" (Isotonic)، أما إذا ما تساوت القوة الممارسة على العضلة مع مقاومتها فإن عضلتي لا تنقبض، بل يزداد توترها، وهذا ما يسمى بـ"متساوي القياس" (Isometric)، أما مقدار القوة الناجمة عن التقلص فمرهون بطول عضلتي ومقدار نبضاتها الكهربية.

ولكي تصدر الحركة التي تسمى الانقباض يتحتم مرور النبضة الكهربية الصادر عن ليفة الأعصاب الحركية إلى المنطقة الواقعة بين غشاء خليتي العضلية وبين غشاء خليتي العصبية. ونتيجة لرد الفعل الكيميائي الذي يحدث مع هذه النبضة الكهربية، يتم خلال فترة قصيرة انزلاق خيوط الأكتين على خيوط الميوسين داخل ليفتي العضلية، وبهذا يقصر طول ليفتي العضلية. وخلال مرحلة رد الفعل يصدر بعض الشيء من الحرارة، كما أن هذه الحرارة الصادرة عن عضلاتي هي التي تحدد درجة الحرارة الطبيعية لجسمك. ولذا فإن عضلاتي عندما ترتجف في الهواء البارد تقوم بإنتاج حرارة أكثر لتحافظ على حرارة جسمك. أليس هذا برهان واضح في أن لله حكمة فيما خلق؟ فعضلاتي كما أنها تمكنك من التحرك، فكذلك تحميك من البرد وتوفر لك الدفء بحركاتها. ولعلك أدركت الآن لماذا يتحرك الإنسان في الهواء البارد ويقي نفسه من التجمد.

إن الحركات الانقباضية التي تنتج عن النبضات الكهربية التي ترد بشكل متوال من ليفة عصبية إلى ليفة عضلية، تسبب بعد فترة الإرهاق لِلّيفة العضلية وتجعلها بحاجة إلى الاستراحة، عندها تبدأ أليافٌ عضليةٌ أخرى لم تنقبض بعدُ بالعمل وتنفذ تلك المهام. أما إذا ظلت النبضات الكهربية تتوالى بشكل مكثف على ألياف العضلية ولم تترك لها فرصة الاستراحة، فعندئذ تصاب بحالة من الانقباض المستمر، وهو ما يطلق عليه "التشنج العضلي".

من أجل الحصول على حركات منسجمة متناسقة؛ بدءً من المشي إلى الجري، ومن الوثوب إلى القعود.. فإن عضلاتي التي تحمل مستقبلات للتوتر، ترسل كل لحظة وعبر الجهاز العصبي بيانات عن حالة العضلة وسرعة ودرجة انقباضها، فيتم بذلك مراقبة حركات عضلاتي وتنظيمها عن قرب. ومن ثم فلا تترنح أنت عند السير ولا ترتجف يداك عند تناولك الطعام.

وكما أن كل جهاز من أجهزة الجسم وكل نسيج فيه قد يصاب بأمراض معينة، فإني أيضا أصاب بأمراض خاصة بي. وأكثرها الضعف، واضطراب الهيئة، والألم، والتشنجات العضلية اللاإرادية، والالتهابات العضلية، وضمور العضلات أو تيبسها، والأورام العضلية الحميدة والخبيثة.

عزيزي عبد الله.. لعلك أدركت الآن قدرة الصانع ﷻ وحكمته في كل عضلة من عضلاتي، الصانع الذي حرّك أعضاء جسمك، وكسا عظامك، وأقام عودك. فمن المستحيل أن تكون ليفة واحدة من ألياف العضلية قد تكونت من تلقاء نفسها. هذا وقد أستغرب كثيرا من الذين يزعمون أن الخلايا العضلية والأجهزة الحركية لدى الكائنات كلها، قد خلقت صدفة أو أنها من نتاج الطبيعة.

عزيزي عبد الله.. لعلك أصبحت أنت أيضا تسخر من تلك القوانين البيولوجية المشوهة المنحرفة التي تنسب المخلوقات إلى الطبيعة. ■

(*) جامعة ٩ أيلول / تركيا. الترجمة عن التركية: د. طارق عبد الجليل.

حتى يتبيّن لهم أنه الحق

أ.د. عماد الدين خليل *

على مدى أشهر معدودات يشهد العالم وقائع ومعطيات تفصح بلسان الحال والمقال معا عن إعجاز كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والمصداقية المطلقة لتعاليمه وتحذيراته.

عشرات الكتب ومئات البحوث

قبل ذلك وعلى مدى القرنين الأخيرين تحديداً، جاءت الكشوف العلمية وبخاصة في مجالات التاريخ والخليقة والفيزياء والجيولوجي والكوزمولوجي والبيولوجي والجغرافيا والتشريح وعلم الأجنّة، لكي تتطابق بشكل يثير الدهشة مع آيات الله البيّنات.

وكلنا نذكر عشرات الكتب، ومئات البحوث التي تحدّثت عن ذلك، ونذكر معها المؤسسات والدوائر التي تمحّضت لمتابعة قضية العلم والإيمان أو القرآن والعلم الحديث، والتي قدّمت منظومة من الكشوف العلمية والمعرفية المتوافقة مع ما سبق وأن أشار إليه كتاب الله ﷻ.

وكلنا نذكر -مع هذا وذاك- الجهد الكبير الذي بذله العالم الفرنسي المشهور "موريس بوكاي" في كتابه القيّم "القرآن الكريم والتوراة والإنجيل: دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة"، والذي

يشهد العالم اليوم جملة من الوقائع والمعطيات، تقدم إضافات ذات قيمة بالغة لظاهرة الصدق المطلق لآيات الله البيّنات، وتطابقها المدهش مع الكشوف والخبرات المتجددة في واقع الحياة البشرية على امتدادها في العالم كلّه..

خلص فيه -بعد عشرين عاما من البحث المكافح- إلى أن تسعة أعشار ما ورد من معطيات معرفية في التوراة والإنجيل، تسقط إذا أحلناها على الكشوف المعرفية الحديثة، ولا يمرّ سوى العشر. وفي المقابل فإن عشرة أعشار ما ورد في القرآن الكريم يتوافق مع هذه الكشوف. ويقول الرجل معقّبا: "لا يمكن لـ"محمد" على افتراض تأليفه للقرآن أن يتعامل مع معطيات التوراة والإنجيل في ضوء معرفة لن تتشكل إلا بعد أربعة عشر قرنا، فيسقط منهما ما لا يتوافق والحقائق العلمية، ولا يستبقي سوى العشر، أيضا في ضوء معرفة ستتشكل بعده بزمن بعيد.. لا يمكن لرجل كهذا إلا أن يكون نبيًّا يتلقى عن مصدر علوي مطلق هو الله سبحانه".

التطابق المدهش

الآن، وعلى مدى أشهر معدودات، وعبر ما تتناقله الفضائيات صباح مساء، يشهد العالم جملة من الوقائع والمعطيات، تقدم إضافات ذات قيمة بالغة لظاهرة الصدق المطلق لآيات الله البيّنات، وتطابقها المدهش مع الكشوف والخبرات المتجددة في واقع الحياة البشرية على امتدادها في العالم كلّه:

أولا: انهيار النظام الربوي، ومعاناة الرأسمالية من الاختناقات، ووصولها إلى طرق مسدودة.

ثانيا: الغزو الشامل لأنفلونزا الخنازير، والإعلان عنها وباءً عالمياً.

ثالثا: الحملة الشاملة التي أعلنتها رئاسة الجمهورية الفرنسية، لتضييق الخناق على ظاهرة شرب الخمر باعتبارها واحدة من أكثر العوامل المؤدية إلى السرطان.

رابعا: تحليل طبي يجريه عدد من كبار الأطباء، يؤكد أن الختان يمثل واحدة من أكثر وسائل المناعة فاعلية ضد سرطان البروستات.

لا أحد يجادل في هذا الذي يشهده العالم الآن، بعد إذ أصبح، بمعطياته وذيوله المتجددة واقعاً ثقيلاً يفرض نفسه على الإعلام، ويشهده مئات الملايين من الناس على مدى العالم كلّه.

ما الذي سبق وأن قاله كتاب الله في الظواهر الأربع؟!

أولا: يكفي أن نتذكر الآيات البيّنات التي أعلنت الحرب على الربا، وحذّرت من تعاطيه، وقدمت البدائل الاقتصادية المناسبة لتجاوزه واستئصاله من حياة الناس:

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ۞ يَمْحَقُ اللّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾(البقرة:٢٧٥-٢٧٦)، ﴿اتَّقُواْ اللّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(البقرة:٢٧٨)، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ الرِّبَا أَضْعَافاً مُّضَاعَفَةً﴾(آل عمران:١٣٠)، ﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾(النساء:١٦١)، ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّباً لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ﴾(الروم:٣٩).

وأن نتذكر معها ما قاله المفسّرون في الموضوع -وهو كثير غزير- نكتفي منه بإشارة واحدة قد تغني عن التفاصيل: "لم يبلغ من تفظيع أمر أراد الإسلام إبطاله من أمور الجاهلية ما بلغ من تفظيع الربا. ولا بلغ من التهديد في اللفظ والمعنى ما بلغ التهديد في أمر الربا.. ولله الحكمة البالغة. فلقد كانت للربا في الجاهلية مفاسده وشروره. ولكن الجوانب الشائعة القبيحة من وجهه الكالح ما كانت كلها بادية في مجتمع الجاهلية كما بدت اليوم، وتكشفت في عالمنا الحاضر، ولا كانت البثور والدمامل في ذلك الوجه الدميم مكشوفة كلها كما كشفت اليوم في مجتمعنا الحديث. فهذه الحملة المفزعة البادية في هذه الآيات على ذلك النظام المقيت، تتكشف اليوم حكمتها على ضوء الواقع الفاجع في حياة البشرية، أشد مما كانت متكشفة في الجاهلية الأولى. ويدرك -من يريد أن يتدبر حكمة الله وعظمة هذا الدين وكمال هذا المنهج ودقة هذا النظام- اليوم من هذا كله ما لم يكن يدركه الذين واجهوا هذه النصوص أول مرة. وأمامه اليوم من واقع العالم ما يصدّق كل كلمة تصديقا حيا مباشرا واقعا. والبشرية الضالة التي تأكل الربا وتوكله تنصب عليها البلايا الماحقة الساحقة من جراء هذا النظام الربوي، في أخلاقها ودينها وصحتها واقتصادها. وتتلقى -حقا- حربا من الله تصبّ عليها النقمة والعذاب، أفرادا وجماعات، وأمما وشعوبات وهي لا تعتبر ولا تفيق!".[١]

وماذا عن الخنزير؟!

ثانيا: يكفي أن نتذكر تحذيرات القرآن الكريم من الخنزير



وأكل لحمه:

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ﴾(البقرة:١٧٣)، ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ﴾(المائدة:٣)، ﴿إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَّسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾(الأنعام:١٤٥).

"والميتة تأباها النفس السليمة وكذلك الدم. فضلاً على ما أثبته الطب –بعد فترة طويلة من تحريم القرآن والتوراة قبله بإذن الله– من تجمع الميكروبات والمواد الضارة في الميتة وفي الدم.. فأما الخنزير فيجادل فيه الآن قوم. والخنزير بذاته منفر للطبع النظيف القويم. ومع هذا فقد حرمه الله منذ ذلك الأمد الطويل ليكشف علم الناس منذ قليل أن في لحمه ودمه وأمعائه دودة شديدة الخطورة (الدودة الشريطية وبويضاها المتكيّسة). ويقول الآن قوم: إن وسائل الطهو الحديثة قد تقدمت، فلم تعد هذه الديدان وبويضاها مصدر خطر، لأن إبادها مضمونة بالحرارة العالية التي توفرها وسائل الطهو الحديثة. وينسى هؤلاء الناس أن علمهم قد احتاج إلى قرون طويلة ليكشف آفة واحدة. فمن الذي يجزم بأن ليس هناك آفات أخرى في لحم الخنزير لم يكشف بعد عنها؟ أفلا تستحق الشريعة التي سبقت هذا العلم البشري بعشرات القرون أن نثق بها وندع كلمة الفصل لها، ونحرّم ما حرمت ونحلل ما حللت، وهي من لدن حكيم خبير؟".[٢]

وها هو العالم يشهد اليوم إعدام مئات الآلاف من الخنازير تجنبا للأنفلونزا التي يحملونها، والتي أعلن عنها وباءً عالميا!..

ثالثا: ويكفي أن نتذكر –كذلك– تحجيم القرآن لظاهرة شرب الخمر ثم تحريمها بشكل قاطع:

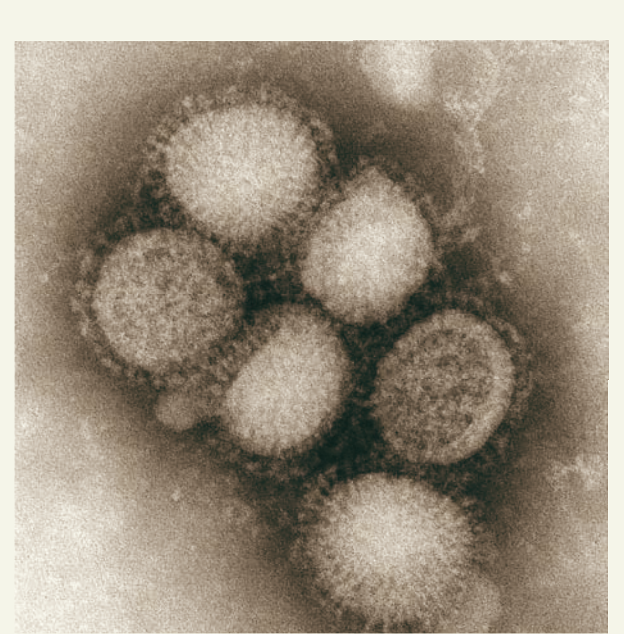
﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾(البقرة:٢١٩)، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّىَ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾(النساء:٤٣)، ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۞ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ (المائدة:٩١-٩٠).

إن مفاسدها –إذن– كثيرة متشعبة لا يتسع مقال كهذا للخوض في تفاصيلها، ويكفي أنها رجس من عمل الشيطان، لكي يتجنبها الإنسان بفطرته السليمة.. ثم ها هي إحدى الكشوف الحديثة تشير إلى أنها أحد الأسباب المؤكدة لواحد من أكثر الأمراض خطورة وفتكا: السرطان.

رابعا: أما الختان الذي يقي هو الآخر من أحد أنماط السرطان، فأمره مؤكد في سنة رسول الله ﷺ وتقاليد المسلمين على مدار الأماكن والأزمان.

وهي ليست خاتمة المطاف

هذه الوقائع الأربع التي ألمح إليها هذا المقال ليست خاتمة المطاف ولا نهاية التاريخ.. فعبر القرون الأربعة عشر تكشفت بقوة



الفكر البشري والبحث العلمي ومعطيات الواقع، عشرات الحقائق ومئاتها في شتى مفاصل الكون والعالم والطبيعة والنفس الإنسانية والجسد البشري.. وقرون أخرى ستمضي لكي تتكشف حقائق أخرى.. وهي في الحالتين تجيء مطابقة لما سبق وأن أشار القرآن إليه وأكد عليه.

فقبالة الآية المدهشة: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾(يونس:٣٩). والآية المعجزة ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾(فصلت:٥٣)، يقف المرء خاشعا أمام الجلال الإلهي الذي يهيمن على الكون والحياة، ويحكي عن تكوينهما وصيرورتهما ومصائرهما، فإذا بهذا الذي يقوله كتاب الله يتوافق بشكل مدهش مع معطيات العقل البشري وكشوف العلم الحديث وخبرات الواقع المشهود.

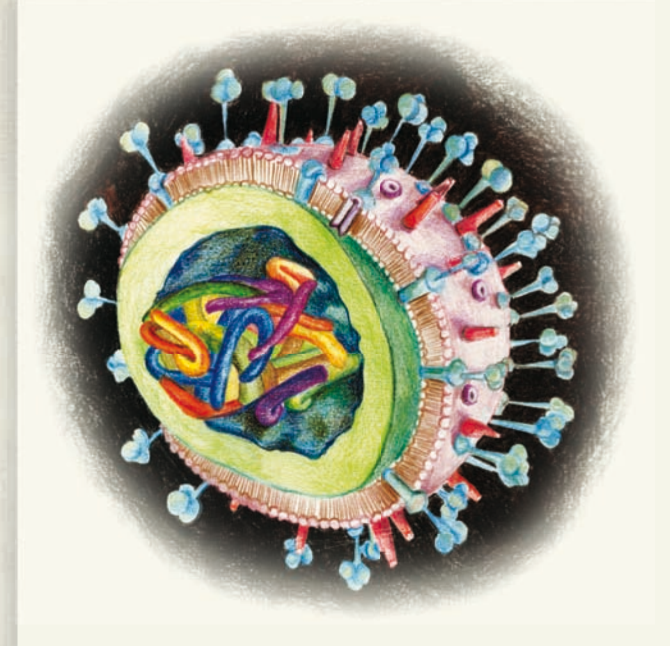
محاولات خائبة وأخرى مضادة

ومن عجب أن محاولات موصولة بذلت في الاتجاه المعاكس الذي يستهدف إلغاء الحضور الإلهي في الكون والحياة ونفيه.. فماذا كانت النتيجة؟

خمسون عاما من الجهد اللافح في المعاهد والمختبرات العلمية السوفياتية لتمكين الإنسان من بعث الحياة في المادة العضوية (الطين اللازب)، خرج علماء الحياة بعدها وهم ينفضون أيديهم ويعلنون عن فشلهم الحاسم.

ومن قبلهم كان "ماركس" و"انغلز" قد صاغا في "المادية الديالكتيكية" نظرية المتغيرات الكمية التي تتحول إلى متغيرات نوعية بعيدا عن تدخل قوة أو إرادة فوقية، والتي جاءت المعطيات العلمية الأكثر حداثة لكي تبيّن تهافتها وعجزها، و"سخفها الطائش" إذا استعملنا عبارة سوليفان في "حدود العالم".

وفي المقابل يقوم البروفيسور البريطاني "هويل" بمشاركة بروفسور هندي في جامعة كارديف في إنكلترا، بمحاولة استغرقت عشرين عاما لفحص إمكان تخلّق الحياة في موات الوحل (Primeval Soup) فيما أسمياه محاولة التخلق في الفراغ (Evolution from Space)، وقالا بأنهما بدآ المحاولة بعقلية الحادية صرفة، وأن الفكرة السائدة يومها هي أن تحقيق التخلّق المذكور هو بنسبة واحد إلى عشرة في أفضل الاحتمالات.



ولكنهما وجدا في نهاية المطاف أن النسبة تضاعفت وفق أرقام فلكية، وأصبحت واحدا أمامه عشرة أمامها أربعين ألف صفر.. أي إن التخلّق بدون إرادة فوقية مستحيل.. مستحيل.. فما كان منهما إلا أن يختما بحثهما بفصل يحمل عنوان الله (God).

وما هي إلا علامات على الطريق

والحديث يطول، ومكتبة العلم والإيمان تتلقى يوما بعد يوم سيلا من البحوث والدراسات والمؤلفات، بعضها يؤكد بعشرات الشواهد العلمية إبداعية الله سبحانه في الخلق، فيما محّض له القرآن مساحات واسعة..

بعضها الآخر يؤكد وحدة الصنع فوحدانية الصانع، فيما أشار إليه القرآن في عشرات المقاطع والآيات..

فئة ثالثة تحكي عن ذلك التطابق المدهش بين ما سبق وأن نصّ عليه القرآن، وبين الكشوف العلمية في أكثر معطياتها حداثة.

إن تحذير القرآن الكريم من الربا والخمر وأكل لحم الخنزير، وتأكيد السنة النبوية على الختان.. إن هي إلا مجرد شواهد وعلامات على الطريق.. وهناك غيرها العشرات والمئات.. ■

(*) كلية الآداب، جامعة الموصل / العراق.

الهوامش

(١) في ظلال القرآن، لسيد قطب، الطبعة السابعة والثلاثون، دار الشروق، القاهرة–١٩٧٣م، جزء ٣، ص:٣١٨.

(٢) المصدر نفسه، جزء ٣، ص:١٥٦.

عالَم المحبة لا يبنيه إلا أولئك المحبون الصادقون ذوو القلوب العامرة بالإخلاص، والنظرات المشعة بمشاعر الإنسانية، الذين يرون في كل حي وجامد رسائل محبة وإشراقات ودٍّ وعطف يملأ العالم كله..

***

الحوار الحضاري؛ صوب مقام التعارف



د. سمير بودينار *

لا تنفك قضية الحوار الحضاري تلح في حضورها على راهن الجماعة الإنسانية، عاكسة باستمرار مستوى تدبير العلاقة بين أفرادها، والقدرةَ على حل الإشكالات التي تعترض مسارها، سواء في الصورة المثلى حين يتحقق الرقي بمستوى تدبير تلك العلاقة، أو في صورة شائنة حين تتفجر أوجه الصراع بين الجماعات المختلفة، عبر عناوين سياسية أو اقتصادية أو عرقية أو طائفية أو مذهبية، فتنسد قنوات الحوار أو تتضاءل فرصه حتى تكاد تنعدم.

ولأجل ذلك كانت أهمية النظر العميق في قضية الحوار، ليس بوصفه ضرورة واقعية فحسب، بل باعتباره خيارا إنسانيا ممتدا في الزمان والمكان، وطريقا غايته الصحيحة إبراز الهوية المتفردة لكل جماعة بشرية ضمن الأسرة الإنسانية، لا طمس تلك الهويات بالتأحيد؛ ما يوصل في النهاية إلى الإعلاء من إنسانية الإنسان ككائن مسؤول ومكرم، يواجه تحديات وجودية مشتركة لا

فرصة للتعامل معها إلا بالتواصل والتحاور بين التجارب المتعددة للحضارة الإنسانية. وهو حوار يفضي بدوره إلى التعاون الذي يبلغ بالإنسان مرتبة "التعارف"؛ ذروة الخيرية في صلته بأخيه الإنسان.

الحوار انعكاس للتجارب الحضارية المتعددة وطريق التعارف، ولعل واحد من أكثر الأسئلة التي تلح على راهن الإنسان وحضارته، هو ذلك المتصل بإمكان تحقق التعارف بين التجارب الإنسانية المتعددة لتلك الحضارة، والطريق المؤدية إلى ذلك التعارف، والقيم الباعثة على سلوك هذا الطريق.

وفي نص يفيض بالأدب والحكمة من التراث الإسلامي ترد قصة بليغة تعكس مقدار ما يعود به التواصل بين تجارب الشعوب والأمم، من فائدة على مجموع المتواصلين، يرويها الشاعر الكبير "جلال الدين الرومي" (٦٠٤هـ/١٢٠٧م - ٦٧٢ هـ/١٢٧٣م) في ديوانه الشهير "المثنوي". وهي قصة تنافس أهل الروم وأهل الصين في علم التصوير التي تروي "أن الصينيين قالوا: نحن أكثر مهارة في النقش، وقال أهل الروم: بل نحن أصحاب الكر والفر فيه، وقال السلطان: وأنا أريد امتحانا في هذا الموضوع لنرى من المبرّز منكم في دعواه؟.

وعندما حضر نقاشو الصين والروم، كان الروم أكثر وقوفا على هذا العلم.

وقال نقاشو الصين: ليخصص لنا منزل ولكم منزل، وكان المنزلان متواجهين، أخذ أحدهما نقاشو الروم، وأخذ الآخر نقاشو الصين.

وطلب نقاشو الصين مائة لون من الملك ففتح خزائنه.. وكان لنقاشي الصين كل يوم من خزانة الألوان جعل معين.

وقال نقاشو الروم: لا نقش ولا لون جدير بهذا العمل، اللهم إلا صقل الصدأ. وأغلقوا الباب وظلوا يصقلون، وصار (ما صقلوه) كالسماء بسيطا صافيا... وعندما فرغ نقاشو الصين من العمل، أخذوا يدقون الطبول فرحا. ودخل الملك فرأى صورا في ذلك المكان، كانت تسلب العقول والألباب. ثم انتقل صوب نقاشي الروم، فكشفوا ستارة كانت موضوعة أمامه، فانعكست تلك الصور وتلك الأعمال على تلك الجدران الصافية.

وكل ما رآه هناك، انعكس هنا أفضل، فكانت تخطف العيون من محاجرها".

إن هذا النص على قصره يعطينا عددا من الدروس في إدارة العلاقة بين التجارب الحضارية المتعددة، فضلا عن الحكمة من التعدد المغني في الخبرات الحضارية للأمم، ومحصلته أن الحضارة الإنسانية تغنى بكافة التجارب -صينية ورومية- ويرقى المنجز الحضاري بالتفاعل بين تلك التجارب (عبّرت القصة عن هذا التفاعل بانعكاس الصورة في عمل الآخر واكتمال جماليتها به وفيه)، وبالتالي بلوغ الهوية مستواها الأرقى في مقام التواصل مع الآخر وتجلي منجزها الحضاري بالتفاعل البناء معه.

إن الحدود الحقيقية للهوية لا تتجلى إلا بالتواصل الإيجابي مع غيرها، ولا تظهر ميزاتها بالنسبة لذلك الغير، ولا قيمتها في ميزان الحضارة ومقدرتها على إثرائها إلا بسلوك الإنسان -كيفما كانت هويته الجماعية وانتماؤه المجتمعي وتجربة أمته- مسلك التواصل الذي يؤدي، ما إن تنضج ظروفه الفكرية والنفسية إلى التحاور، ولعل الفيلسوف المسلم الكبير طه عبد الرحمن كان بليغا في التعبير عن هذه الحالة التواصلية وأهميتها بالنسبة للإنسان، هويته ومستقبله حين اعتبر أن "الهوية فرع عن الأصل الذي هو الغيرية".

تتجلى أهمية الدفع باتجاه مستوى الحالة الحوارية من مسار الإنسان، في أنها الحالة التي تضمن تأسيسا واعيا لتواصل بناء بين مختلف تجارب الحضارة، ما يتيح لها فرصا للرقي. غير أن التواصل فضلاً عن ذلك يمس جانبا آخر لا يقل أهمية من جوانب حياة الإنسان وفرص عيشه المستقبلية، وهو بلوغه منزلة التعاون. وهذه درجة من حسن تدبير العلاقة بين أطراف الجماعة الإنسانية لا تُبلغ إلا بمستوى من الوعي يستوعب التعدد كحالة طبيعية وسنة كونية، ويؤسس على هذا الوعي استثمارا لفضائل ذلك التعدد، وأهمها التفاوت بالضرورة في مستويات الإفادة من إمكانات الوجود، وتفاعل الملكات الإنسانية معها إصلاحا وابتكارا وإعمارا وإزهارا.. وهو ما يؤدي إلى الحاجة المتبادلة بين مختلف المجتمعات والأمم تبعا لذلك التفاوت بينها كل في مجال، وضرورة التعاون بينها لإفادة كل منها من التجارب الرائدة والخبرات السابقة لغيره من الأمم.

وعند هذا المستوى، لا شك أن أفقا جديدا للحوار يتجلى. وهو هنا غير الحوار بوصفه تناظرا استدلاليا شرطه الارتكاز على المثال الأعلى، بل الحوار بين فهوم متباينة وتطبيقات متنوعة تحاور بعضُها بعضا من خلال قدرة الجماعة على التعاون بالاستفادة من فهم غيرها وتطبيقه لمنظومة أفكاره، وبالتالي اقتباس كلٍ تجربةً خاصة من غيرها أفضل ما عنده أو أنسبه لها.

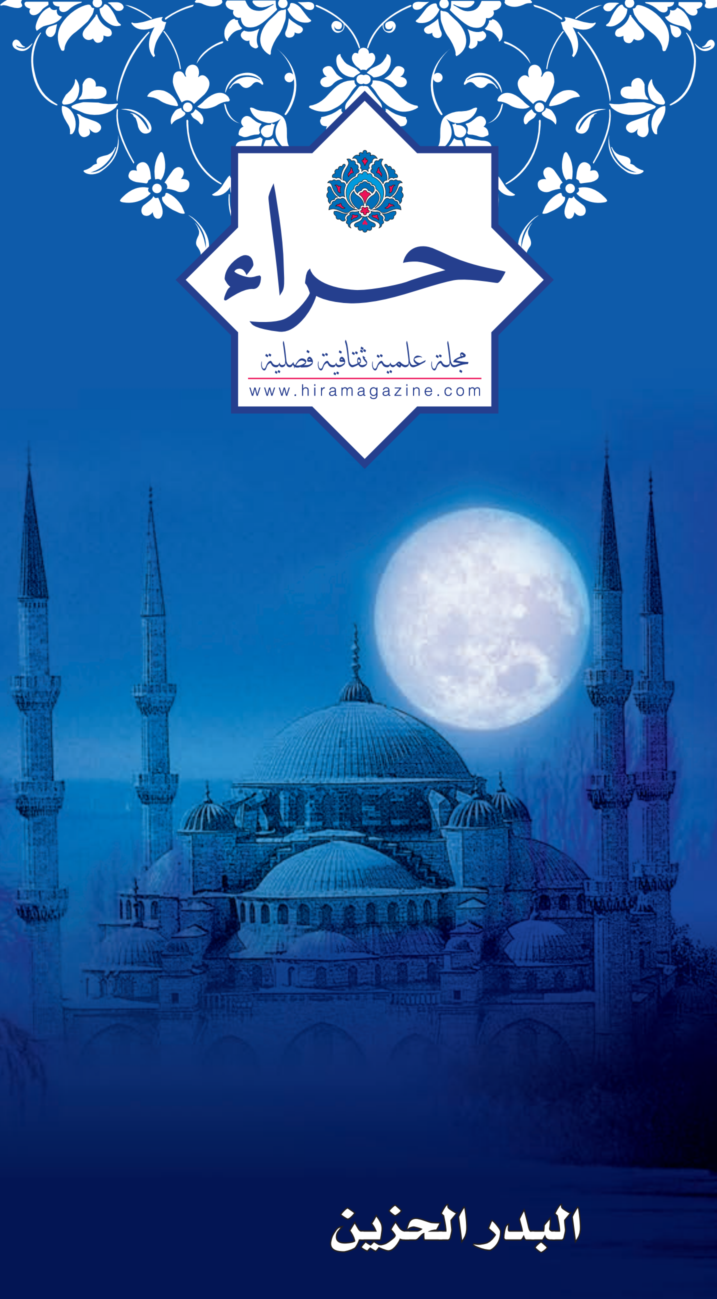
وإذا كان الحوار سبب التعاون، فإن التعاون بدوره هو طريق

التعارف، وهو منـزلة لا تضاهيها في سلم التواصل بين الإنسان منـزلة أخرى، إذ أن التعاون نفسه يمكن أن يساء استخدامه، إما بالتعاون على غير ما يحقق للإنسان الخير والسلم من قيم، أو بالتواطؤ على غير ما يحقق العدالة من مواقف وأحكام. ولذلك جاء تخصيص مجال التعاون بين الناس في القرآن الكريم على البر والتقوى، أي على الأخلاق الإنسانية السامية وقيم الإحسان ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾، كما ورد التحذير من التعاون على ما يناقض تلك القيم، أو يؤدي إلى اختلال موازين العدالة بالظلم والاعتداء: ﴿وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾(المائدة:٢).

أما التعارف فهو الغاية من التعدد في الجماعات البشرية التي أوجد الله عليها العالم. ليس فحسب لأن ذلك التعدد قانون كوني إنساني ينبغي تدبيره، بل لأن التعارف منـزلة إنسانية أخلاقية وحضارية راقية، يُحفز الإنسان على بلوغها، ذلك أنه عند هذا المستوى من الرشد في العلاقات بين المجتمعات تزول مخاطر التعاون، بل التواطؤ على الجور أو الحيف أو أنواع الرذائل. لأن المقام مقام تعارف أي اتفاق وتلاق وتواصل وتعاون على المعروف والعرف، وهي المبادئ والقواعد الجامعة لمعاني الخيرية والأخلاق الفردية والمجتمعية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(الحجرات:١٣).

والخلاصة أن الإجابة على سؤال الهوية، بل التحقق الإنساني للهوية بكل ما يواجهه من تحديات مشتركة في عالم اليوم، لا طريق له إلا طريق الحوار الذي يؤسس التواصل الإنساني فيستحيل تعاونا، ثم يرقي حينئذ إلى مستوى يحفظ للإنسان -كما لكل جماعة إنسانية- هويتها، في ظل سعي مشترك إلى تحقيق الإفادة المتبادلة مما عند الآخر، بل إلى إثراء تلك الهوية بالتحالف على المثل والقيم العليا، التي تنادي بها الفطرة السليمة للإنسان -مطلق الإنسان- وذلك هو مقام التعارف. ■

(*) مدير مركز الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية - وجدة / المغرب.



البدر الحزين

أيها البدر الحزين!
دمعُك في القلب دفين،
منذ سنين وسنين...
مترع الحزن،
شاحب اللون..!
متى يا تُرَى،
عن نفسك تجلو الأحزان،
وتفعمنا بالرَّوح والريحان..؟
* * *



المسرح
بين الفنون الإسلامية

محمود محمد كحيلة *

المســـرح أبو الفنون، لأنه من أقدمها ولأنه منبر غير تقليدي للتوجيه والإرشاد والتربية والتعليم والدعـــوة إلى قيم الحق والخـــير والجمال. وما النقوش والزخارف الرائعة الدقة والتشكيل التي لا يخلو منها بيت من بيوت الله -المساجد- إلا لون من أقدم ألوان الفنون. وهذه الفنون التشكيلية لا يخلو منها أيضا أي أثر من الآثار الإسلامية قصرا كان أو درعا، ســـيفا كان أو ثيابـــا أو إناءً.. وهي بمثابة بصم خاص يميز الآثار الإســـلامية عما سواها من آثار العصور الأخرى، لأن الفن له وظيفة أساسية في الحفاظ على الهوية.

والمســـرح الإسلامي بكل ما يشمل من الفنون يمكن ببعض الجهد توظيفه ليصبح درعا للإســـلام في مواجهة الغزو الدرامي المدمر الذي يخترق البيوت والرؤوس. وإذا لم نفعل ذلك ستنتهي الألفية الثالثة التي نشـــهد بدايتها، كما انتهت السنوات الطويلة الســـابقة من عمر أمة الإسلام والمسلمين، دون استخدام لواحد من أهم المنابر الإنسانية.

لا شـــك أنه آن الأوان ليجد مصطلح المســـرح الإسلامي موقعه وســـط المعاجم والســـجلات المســـرحية والدرامية، بما لذلك من أهمية في الرد على المدعيين بتشـــدد الإسلام وتعصب المســـلمين. وهو الادعاء الذي لا أجد منطقا أبسط في الرد عليه

مـــن ذكر حقيقـــة؛ أن القرآن الكريم الـــذي لم يترك كبيرة ولا صغيرة قمّ المسلمين إلا أحصاها نزل في النصف الثاني من القرن الســـادس الميلادي، أي بعد معرفة الإنسانية للمسرح الذي كان على أقل تقدير في القرن الرابع قبل الميلاد بألف عام على الأقل. وعلى الرغم من الأهمية الكبيرة للفنون المسرحية وتعدد فوائدها، إلا أنهـــا لم تجد من يدافـــع عنها أو يصبغ فاعليتها بالشـــرعية.

العرب القدماء لم يعرفوا المسرح، لأنه اعتمد في بداياته على الشعر وكانوا أشـــعر الناس، لذلك لم يهتموا بترجمة المسرحيات الشـــعرية. ولما احترف العرب فنون الكتابة بما تحتاجه من قدرة على الإلقاء والخطابة، ابتكروا النقائض وهي أشـــعار مرتجلة يبدأ فيها آخر الشـــعراء من حيث انتهى أولهم الذي يتفنن بالطبع في حبك قافية تعيق تقدم قرينه. وتعرف هذه الفترة من نهضة العرب بمرحلة موت المســـرح، لأنه انعكاس للواقع. والواقع أن الغرب كان يمر بمرحلة من أكثر مراحـــل التخلف والظلام حيث كان مسرح الدنيا يستعد لاستقبال نور الإسلام.

تفوق العرب في فنون الكلام حتى إذا حســـبوا ألا نظير لهم في استخدام اللغة العربية "صياغة وتلقيا" أدركتهم معجزة القرآن الكريم، وكان الخالق قد أســـبغهم من بلاغـــة التلقي ما أهلهم لاســـتيعاب الإعجاز اللغوي لآيات القرآن، وتمتع من آمن منهم بترتيلـــه ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾(المزمل:٤). ويقول المصطفى ﷺ: "ليس منا من لم يتغنى بالقـــرآن" (رواه البخاري)، مما يدل على "أن الإسلام لا يناصب الفن أي نوع من العداء إذا كان ينبع من معنى طاهر حســـبما يقره الإسلام عقيدة ومنهجا، بل إن الدين والفن يلتقيان التقاء كاملاً في حس المســـلم حتى يكون الفن قائما على التصور الإيماني للوجود والمشاعر والأفكار والسلوك والوجدان، ويحقـــق مقاصد هذا التصور في الواقع الإنســـاني".[١] وعلى من يدعي تحريم الفن أن يقدم أدلة من المصادر التالية:

١- القرآن الكريم

المصدر الأول للتشريع و لم يأت به تحريم للفنون كلها أو بعضها، ولما كان الأصل في الأشياء الإباحة، لذا فالأصح والواجب ألا ترسل أقوال تقضي بالتحريم لتكون في ذاتها خروجا عما جاء بكتاب الله ﷻ القائل: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا﴾(البقرة:٢٩).

٢- السنن والأحاديث النبوية

اشـــتهرت بعض الأحاديث بتحريم الفنون، ولكن جاء بالبحث القيـــم والمفصـــل الذي تفضل بنشـــره العالم الجليل "يوســـف القرضاوي"، بعد عرضه على أهـــل العلم والفكر "الخلاصة أن النصوص التي استدل بها القائلون بالتحريم، إما صحيح غير صريح أو صريح غير صحيح، و لم يسلم حديث واحد مرفوع إلى رسول الله ﷺ يصلـــح دليلا للتحريم. وكل أحاديثهم ضعفها جماعة من الظاهرية والمالكية والحنابلة والشافعية".[٢] ويقول الرسول الكريم ﷺ: "مـــا أحل الله في كتابـــه فهو حلال وما حـــرم فهو حرام وما ســـكت عنه فهـــو عفو، فاقبلوا مـــن الله عافيته، فإن الله لم يكن لينسى شـــيئًا وتلا: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾(مريم:٦٤)" (رواه الحاكـــم). وهنا يتفـــق قول نبي الله ﷺ مع ما جاء بكتاب الله ﷻ.

٣- إجماع آراء العلماء والفقهاء

جاء بكتاب الأحكام للقاضي أبي بكر بن العربي: لم يصح التحريم في شـــيء، وقال ابن الطاهر في كتابه "السماع": لم يصح منها حرف واحد، وقال أبو الطالب المفضل بن سلمه اللغوي في كتابه "الملاهي والفنون": من عرفت له آفة في حاسة الشم كره رائحة الطيب ومن غلظ حســـه كره الفن فتشاغل عنه وعابه وذمه".[٣]

الأديب الإســـلامي حجة الأدب العـــربي "مصطفى صادق الرافعي" الذي اشـــتهر بخصومته الشـــديدة وتصديه العنيد لأي تجاوزات دينية أو أدبية عبّر عن إعجابه وترحيبه بالتجربة المسرحية بما كتبه عن مسرحية "محمد" لتوفيق الحكيم "وحسب المؤلف أن يقال بعد اليوم في تاريخ الأدب العربي أن ابن هشام كان أول من هذب السيرة تهذيبا تاريخيا على نظم التاريخ، وأن توفيق الحكيم أول من هذبها تهذيبا فنيا على نسق الفن".[٤] وقد ثبت بعد ذلك أنه قام بتأليف نص مســـرحي بعنوان "حسام الدين الأندلسي".

بهـــذه الأدلة والبراهين نصبح على يقين أن "الإســـلام يعانق الحضارة النافعة ويؤاخي المدنية الراشدة ويواكب التطور المفيد.. ولا شك أن المســـرح من ثمرات الحضارة، أبدعها عقل الإنسان وأنتجها عباقرة البشـــر، فيقف الإسلام منه موقف الموجه الراشد والمصلح المتبصر الواعي، فيأمر القائمين عليه بنشر العلم وتثبيت العقيدة وتدعيم الأخلاق وتوجيه الأمة لما يصلحها في دنياها عن طريق هذه الوسيلة التي سخرها الله لتكون أداة نافعة للإنسان".[٥]

والنفس البشرية تحتاج إلى تهذيب وترويح كما يحتاج الجسد إلى الطعام والشراب. وما كان الدين الإسلامي ليبقى وينتشر ويستمر لو لم يف بكافة احتياجات الإنسان النفسية والجسدية قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾(الأعراف:٣٢). والزينة بتعدد دلالاتها هي من أعمال الفن التي لم يحرمها الله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا﴾(البقرة:٢٩).

والمسرح الإسلامي بكل ما يشمل من الفنون يمكن ببعض الجهد توظيفه ليصبح درعا للإسلام في مواجهة الغزو الدرامي المدمر الذي يخترق البيوت والرؤوس. وإذا لم نفعل ذلك ستنتهي الألفية الثالثة التي نشهد بدايتها، كما انتهت السنوات الطويلة السابقة من عمر أمة الإسلام والمسلمين، دون استخدام لواحد من أهم المنابر الإنسانية.

إلى مختلف الأقطار العربية، فمثل في اليمن وفي الكويت وفي سوريا وفي العراق وفي الأردن وفي غير تلك البلاد.(٦)

ويعالج النص قصة مأثورة عن الإيثار وإنكار الذات والدعوة إلى فعل الخيرات، وأبطالها "عكرمة الفياض" و"خزيمة بن بشر". كما أنها تعكس سمو الخلق والمروءة والنبل وغيرها من القيم الجميلة التي أكتسبها العرب من الإسلام.

تطور الدراما المسرحية الإسلامية

في زمن الخليفة المهدي كان "عبد الرحمن بن بشر" أحد الدعاة، يقوم بتجميع الناس على مشارف بغداد فوق ربوة وينادي: ما فعل النبيون؟ أليسوا في أعلى عليين؟ فيقول من حوله: نعم، ثم ينصب محاكمة للخلفاء ومن تلاهم من حكام الدولة الأموية ثم خلفاء الدولة العباسية، حيث يعترف كل منهم بما فعل من سيئات تسوقه إلى جهنم أو حسنات وطيبات ترفعه إلى مقام الجنة مع الخلفاء الراشدين. وقد ظهرت بالأمة الإسلامية عدد من الحالات الدرامية ثم اختفت تماما كل الأنشطة الدرامية أو شبه المسرحية من خارطة النشاط الثقافي للأمة الإسلامية التي شرعت في التفتت والانهيار، حتى نشطت المسرحية الإسلامية من جديد في إطار حديث تأثر بالتجربة العالمية في الشكل لا المضمون. وكانت العودة في مصر وتحديدا في الفترة من عام (١٩٤٠-١٩٦١م). وقدم في هذه المدة القصيرة (٣٤) مسرحية وفقا للإحصائية الدقيقة التي ضمنها كتاب "المسرح الإسلامي". وهي تعتبر أول التجارب الحديثة في المسرح الإسلامي بريادة مصر، لأنها كانت من أول الدول العربية حصولاً على الحرية. ومن الطريف أن يخرج أول نص مسرحي من عباءة المسرح المدرسي كإشارة للتماس الواضح بين الكيانين. وكان هذا النص بعنوان "المروءة المقنعة" تأليف الشاعر "محمود غنيم"، ونشر للمرة الأولى بصحيفة "دار العلوم" عام (١٩٤٠م)، ومنها انتقل إلى مختلف الهيئات، ثم

رواد المسرح الإسلامي المعاصر

سنتعرف على أهم رواد المسرح الإسلامي المعاصر وأهم كتاباتهم المسرحية، لما لذلك من أهمية كبيرة في تحقيق عملية التأهيل والتواصل الفني والثقافي الهام، والواجب بين مختلف الأجيال الساعية إلى التقدم.

أ-**محمود غنيم**: بالمسرحية المذكورة يقف حاملاً لواء الريادة للمسرحية الإسلامية المعاصرة التي كما لاحظنا أن بدايتها الأولى جاءت من خلال رجال تعليم للتأكيد على التماس الشديد بين المسرح الإسلامي وبين التعليم، لأن كلاهما وسيلة للتربية والتقويم والثقافة والتهذيب والتعليم.

ب-**محمد محمود رضوان**: كان وقتها نقيبا للمعلمين في مصر، وكتب للمسرح الإسلامي تسعة نصوص هي: نور على الصحراء، طفولة محمد، شباب محمد، في سبيل الله، إسلام عمر، إلى يثرب، على ضفاف اليرموك، مروءة ووفاء، دموع الخنساء".

جـ-**علي أحمد باكثير**: يمنيّ الجنسية مصريّ الهوية الثقافية. بدأ حياته الوظيفية في سلك التربية والتعليم مدرسا للغة العربية. وقد أثرى المسرح الإسلامي بالعديد من النصوص منها: هلك المتنطعون، الخاتم، حارس البستان، من فوق سبع سماوات، زوجتان صالحتان، الإمام الشجاع، الأسير الكريم، الملحمة العمرية.

د-**محمد يوسف محجوب**: شاعر رقيق، كتب الكثير من النصوص المسرحية للمكتبة المدرسية أهمها: بلال، عمرو العجوز، غزوة بدر.

آراء المفكرين والعلماء

يرى أصحاب الرأي أن المسرح الإسلامي يشكل جانبا له خطره في تنبيه المشاهدين إلى كثير مما يحاك ضد المسلمين. ولذلك تزيحه القوى السياسية من الساحة الثقافية والفنية، لأنه كان في الماضي يؤدي دورا، وله تأثير قوي في حث الأمة على مقاومة الاستعمار ومطاردة كل من يحاول أن ينال من دين الأمة وإسلامها. ولذلك يحرضون جميعا على ممارسته بتحفظات هي:

١- البعد عن تشخيص وتجسيد رسل الله وأنبيائه.

٢- تضمينه ما يبرز عظمة الإسلام وسيرة الفتوحات.

٣- يهتم بسرد حياة الفاتحين والتعريف بفضل الجهاد وأجر المجاهدين.

٤- تخلو أحداثه من الحض على الذنوب صغيرها وكبيرها.

٥- يهدف إلى إظهار حسن نتائج فعل الخير وفضل الاستقامة.

٦- لا تصاحب فاعليته مفسدة كالزنا وشرب الخمر أو إضاعة الصلاة.

عرفت تجربة المسرح الإسلامي العديد والعديد من الأسماء طوال فترة النشاط المذكورة، حتى حدثت الكبوة وحل الكساد وخبت جذوة المسرح وضمرت نشاطاته واختفت فاعليته لعدة عقود كما عرفنا، ثم عادت من جديد أكثر نضجا ولكن بتجارب قليلة ومتناثرة هنا وهناك في أنحاء العالم العربي، مثل النصوص الإسلامية القصيرة التي نشهد ببراعتها والتي يتضمنها كتاب "تربية الأولاد في الإسلام" لعبد الله ناصح علوان.

وشرف المسرح الملتزم المنضبط أخيرا باستضافة شخصيات هامة من رجال الفكر والعلماء والأطباء والفقهاء والشعراء والساسة والمفكرين الإسلاميين ممن اجتذبتهم أضواء المسرح فكتبوا لها أعمالا محدودة، ولكنها مؤثرة على مستوى القيمة الفنية والثقافية والأدبية، لأنها فرضت نفسها على فكر ووجدان أصحابها، وبالتالي مساندتهم المعنوية وموافقتهم الضمنية وتأكيد إيمانهم بأهمية الفنون المسرحية. ومن هؤلاء: الفقيه الجليل دكتور "يوسف القرضاوي"، حيث كتب للمسرح عملين أحدهم مسرحية شعرية عن "يوسف الصديق" عليه السلام، والثاني مسرحية تاريخية عن "سعيد بن جبير والحجاج بن يوسف الثقفي" اسمها "عالم وطاغية".[٧]

وكتب الطبيب والمفكر الإسلامي والعالم الجليل "مصطفى محمود" عددا من النصوص المسرحية الإسلامية منها: الزلزال، الإسكندر الأكبر، الشيطان يسكن بيتنا، الإنسان والظل، الجنة والنار.

وشارك الإمام الصوفي "محمد ماضي أبو العزايم" بنص مسرحي واحد هو "محكمة الصلح الكبرى".

ومن المشاركات مسرحيات الشيخ "سلطان بن محمد القاسمي" حاكم إمارة الشارقة بدولة الإمارات العربية المتحدة. لأنه أول قيادي عربي يساهم بفكره وإبداعه في إثراء المسرح بكل ما لذلك من دلالات إيجابية، وتم هذا بخمسة نصوص هي "عودة هولاكو"، ويتعلق بالهجمة التاريخية المغولية على العرب والمسلمين، ومسرحية "الواقع صورة طبق الأصل" عن المخطط الرامي لانتزاع القدس من المسلمين، و"القضية" التي تجري أحداثها في القرن الحادي عشر، وأفول شمس المسلمين عن الأندلس وخروجهم منها ثم كتب مؤخرا مسرحية "الإسكندر الأكبر" عرضت عام (٢٠٠٧م)، ومسرحية النمرود التي تعرض في عام (٢٠٠٨م)، وكلا العرضان يعكسان برغم الأطر التاريخية قضايا عصرية.[٨]

والعروض العربية أغلبها شبه إسلامية. لذلك يسهل أن تتحول إلى قاعدة أساسية لإحياء المسرحية الإسلامية؛ فتتحول الاجتهادات الآتية من حركات ثقافية إنسانية إلى أفعال دينية إسلامية يثاب المرء بفعلها لتكون دافعا لتقدم وانطلاق الأجيال الحالية والتالية، نحو ما يرجى لهذا الكيان الهام من قيمة وما ينشد له من مكانة. ■

(*) كاتب وباحث مصري.

الهوامش

(١) الغناء والموسيقى، لعمرو عبد الكريم، دار القلم، الكويت ١٩٩٥م.

(٢) الإسلام والفن، ليوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، مصر، ص:٤٩.

(٣) الملاهي وأسمائها، لأبي طالب المفضل بن سلمة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط ١٩٨٥م، ص:٤٥.

(٤) وحي القلم، لمصطفى صادق الرافعي، الهيئة المصرية للكتاب، ص:٣٧٣.

(٥) حكم الإسلام في وسائل الإعلام، لعبد الله ناصح علوان، دار السلام، مصر، ص:٩٢-٩٣.

(٦) المسرح الإسلامي، لأحمد شوقي قاسم، دار الفكر العربي، ص:١٥٠.

(٧) الإسلام والفن، ليوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، مصر.

(٨) ثلاث مسرحيات قصيرة، للدكتور سلطان بن محمد القاسمي، الهيئة العامة لقصور الثقافة، مصر ٢٠٠٣م.



الأنصاري

روايته الأخيرة "عودة الفرسان" نص المولد وخطاب الوداع

أ.د. سليمان عشراتي *

حين يخوض الأنصاري في توثيق سيرة الداعية المصلح فتح الله كولن، تكون الكتابة بالنسبة إليه استشفاءً، وتجملا، ومقاومة لكوابيس الداء العضال، واستجماعا لكل ما في المعين من بذور وفسائل عاجَلَها الرحيلُ عن أن تتفتح وتزدهر وتستوي على سوقها.

يمكن أن يقال عن هذه الرواية إنها النص الوداع، الرسالة الوصية، البيان الختامي، المتن الوديعة، بل إنها صوت احتسابي صادر عن نفس تنحني في مقام الاستسلام، وتذعن للقدر برضى، كما يقتضي الإيمان من المسلم الحق.

إنه النص الجسر الواصل بين إسطنبول ومكناس، نص حَوْليٌّ اختزل الأجندة، واختصر في فصوله أطوار حياة الأنصاري، من حيث شَعر الأنصاري أو لم يشعر. كتابة هذا النص هي في الأساس تنقيب في مراحل سيرة الداعية فتح الله، لكنها غدت في استطرادات عدة من متنها كتابةً عن الذات، ولا غرو أن تتلابس الأشجان، فالمرء مع من يحبّ، والروح تتعشق أن تُنَوِّهَ بشمائلها الشخصية من خلال التنويه بأشخاصٍ مَنْ تتجسَّد فيهم تلك الشمائل.

الكتابة فعل احتسابي

وواضح أن الأنصاري أقبل على الكتابة وهو لا يعرف ما جنس النص الذي سيخوض في تحريره.. كل الذي يدريه أنه يُقْدِمُ على الكتابة تحت باعث قويٍّ، مكين: "ربما كان هذا النص الذي أقدمه اليوم للقراء رواية، أو سيرةً، أو ربما كان قصيدة، أو كتاب تاريخ.. لست أدري"..!

ومن أول وهلة يكشف لنا الكاتب عن مكان ولادة هذا النص، ويُبيِّنُ المنازلَ التي شهدتها عملية نَماء وتشكُّل هذه الرواية، بل ونراه من خلال تقنية القطع والالتفات السرديَين، يميط اللثام عن الحال الدرامية التي تم فيها المخاض وتحقق الوضع: "إنني شرعت في تدوين ملاحمه بمستشفى "سماء" في مدينة إسطنبول العامرة سنة ٢٠٠٨، ثم دوّنت بعضها بعد ذلك ببيتي في مدينة

مكناس بالمغرب الأقصى، ثم قُدِّرَ لي أن أختمها بعد سنة كاملة بمستشفى "سماء" مرة أخرى في مدينة إسطنبول!".

وبما أنه يكتب عن أحد أبرز أئمة الدعوة المميَّزين بالعبقرية في العصر الراهن، فلابد أن نراه يبادر إلى الكشف عن معاناة الموهوبين، إيعازا بما يلقى هذا الإمام من أنواع المكابدات، وربما إيعازا كذلك بما كان يستشعره هو أيضا من دنوّ الأجل.. فالعبقرية عطاء مُبْكِر في الحلول، مبكر في الأفول. يقول متحدثا عن فتح الله: "أيّ بلاء أشد على المرء من أن يعيش قبل أوانه، ويعاشر غير أهل زمانه؟".

لا ريب أن التواشج هنا قائم بين شخصية الكاتب وشخصية المكتوب عنه، ذلك أن الترابط بين الأنصاري وبين الداعية فتح الله كان معنويا، قَريحيّا، والتجاذب بينهما قام على أساس من انشداد الروح إلى الروح. كان الأنصاري المنحدر من أرض طفقت تصدِّر إلى الآفاق أعلاما من رجال السلوك والتأسيس الطُّرُقي، يبحث عن القطب الذي يتواثق معه على المرابطة، فاختلبته رايات الطائفة النورية، فأناخ ناقته وأخذ مجلسه من الحلقة، وانخرط رأسا في استظهار الأذكار. لقد وجد في فتح الله إمامه، وتبين فيه وراثة السر والمفتاحية.

ومن الطبيعي أن يسلس للسارد القول وتحتدم الشعرية من خلال ما يوفره له البعد المكاني الذي حلّ به، والذي تدور فيه وقائع الرواية (إسطنبول) من دواعي الإعراب. إنه فضاء حافل بالتداعيات التاريخية والمرموزية.

ومنذ البدء تجد النفس ذاتها مشتحنة بمشاعر اللوعة والجيشان، إذ هناك ما يبعث على مثل ذلك التهييج الوجداني الذي بدا وأنه -كأغوار البحر- يتلاطم من خلال مجاري العمق والتيارات الجوفية.. وهكذا تهيأ للكاتب العليل أن يعيش ومنذ ساعة هبوطه إلى تلك البقاع، حالةً متوترة من المواجهة مع التاريخ، ومن المكاشفة والإفصاح عن طاقم الفجائع الكبرى التي ما زالت أصداؤها المشؤومة تدوّي في روح الكاتب. وما أسرع ما نعرف أن كاهله ينوء بإرهاقات ثلاثة مزمنة تثوي في العمق، ثلاثة تصدعات لا تزال مفتوحة في جسد الذاكرة: هزيمة الأندلس، وضياع الخلافة، واعتقال الأقصى.

العلة الجسدية إذن تزيد أدواءُ الاعتلال المعنوي من التهابها، وذلك ما يفاقم من وضع الكاتب.

التوحد

ثم لا نلبث أن نرى الكاتب يتوحد مع شخص كولن، أو هو بالأحرى يستشعر ما كان يقرب بينهما من قواسم، فكلاهما على وعي متفجر بمواقع الداء منه، وكلاهما قضى عليه القدر والألمعية أن تستغرقه رحلةُ البكاء.

الداء يمتطي صهوت كولن فينوح، وداء آخر يسحق كينونة الأنصاري فلا يملك سوى أن يبكي هو أيضا، وفي الحالين يبقى الأمل والعزيمة وحدهما مناط هبوب نسيمات الرجاء في استعادة السلامة والعافية والتجدد: "رجلٌ وحده يسمع أنينَ الأسوار القديمة، ونشيجَ الريح الراحل ما بين طنجة وجكارتا! وبكاءَ النورس عند شواطئَ غادرتها سفنُ الأحبة منذ زمان غابر، ولكن لم يشرق لعودتهم بَعْدُ شِرَاعٌ!.. فيبكي"!

وتصرّ السردية على أن تعمق هذا الملمح الاحتراقي البارز في شخصية كولن، فتضيف: "رجلٌ وحده يسمع صهيلَ الخيل القادمة من خلف السُّحُبِ، ونداءَ الغيبِ المحتجبِ، إذ يتدفق هاتفه على شاطئ صدره، فينادي مِنْ عَلَى منبره: ألاَ يا خيلَ الله اركبي!.. ويا سيوف البرق الْتَهِبي!.. ويَرَى ما ليس يُرَى.. فيبكي!".

وتلتفت السردية تارة أخرى إلى استقراء رمزية اسم "البطل" فتراها رمزية تحمل في دلالتها معاني البشرى التي أناط القدر بالداعية الإمام مهمة زرع فسائلها وملء الحقول من حواليه بها: "فتح الله سيرةُ بكاء! لقبه الأسري: "كُولَنْ"، ومعناه "الضحاك" باللسان التركي، وهذا من عجائب الأضداد، ومن غرائب الموافقات أيضا! فهو بَكّاءُ الصالحين في هذا العصر، لكنه ما بكى إلا ليضحك الزمان الجديد، وليزهر الربيع في حدائق الأطفال. ما رأيت أحدا أجرى دمعا منه، ولا أكثر وَلَهًا.. وكأنما دموع التاريخ جميعا تفجرتْ أنهارها من بين جفنيه!".

كولن والنورسي

بل إن الرواية لتجعل من صفة البكاء التي يتميز بها كُولن مَجْلًى مُشَخِّصاً لمهمة

الافتداء والعطاء التي نذر نفسه لها، حين اختار أن يسلك للحياة سبيل التنسك والانقطاع إلى الخدمة وبذل الصالحات. كولن مثل الأستاذ النورسي، ومثل قطاع متميز من أهل الله، عاشوا كينونتهم في صيام وقيام، إذ قدَّروا أن لا وقت لديهم ينفقونه في غير ما يحقق معنى الكمال الإنساني الذي به تتحقق الاستخلافية، استخلافية الإنسان في الأرض.

فالبكاء -حسب قول السارد- هو مجرد عنوان حالي لملاحم من جليل الرهانات التي اجتازها كولن عبر حياته ومنذ الميعة: "ولقد أخطأ من ظنه يبكي ضعفًا أو خَوَرًا! وإنما هو جَبَلٌ تشققت أحجاره عن كوثر الحياة الفياض؛ فبكى! الوعظ سر من أسرار فتح الله! فلم يزل منذ طفولته يبكي بمجالسه؛ فتبكي لبكائه كل عصافير الدنيا! ولقد رأيته يبكي طفلاً وشابا، ثم كهلاً وشيخا! ولم يزل يبكي ويبكي.. وما جفّ لتدفّق شلالاته نَبْعٌ! بدموع مواعظه الْحَرَّى سقى فتحُ الله كل غابات بلاد الأناضول! وبها أروى عطش الخيل، وأطعم فقراء الليل! وبوابلِ بوارقها سقى كل صحارَى العالم! ولقد عجبتُ من أي جبال الدنيا تخرج منابعه؟".

ومن البيِّن أن الكاتب -وهو يستعرض ملامح المعاناة التي عليها فتح الله- كان يجد مجالا لترجمة كثير مما بنفسه هو من ذعر واندحار ومصابرة.. فالبطولة السردية في مطلع الرواية تنحو منحى تَشارُكياً، بحيث نحسّ أن شخصية الأنصاري وشخصية الإمام فتح الله تتقاسمان أو تبادلان دور الحضور بصورة طبيعية، وذلك بحكم ما يقوم في روح الأنصاري من إكبار ومحبة لشخص الإمام، جعله يقرأ مساحة من همومه هو في خريطة هموم وأرزاء الإمام. فحِسُّ البيعة والتبعية جليّ في الخطاب، إذ العلاقة التي تربطه بفتح الله هي علاقة المريد بشيخه، والجندي بقائده، والابن بأبيه.

يمكن أن يقال عن هذه الرواية إنها النص الوداع، الرسالة الوصية، البيان الختامي، المتن الوديعة، بل إنها صوت احتسابي صادر عن نفس تنحني في مقام الاستسلام، وتذعن للقدر برضى، كما يقتضي الإيمان من المسلم الحق.

هنا يقع نوع من التطابق بين وضع السارد ووضع المسرود له، من حيث وحدة وطبيعة المقاومة التي يقتضيها مطمح الانتصار في المعركة الحسية والمعنوية، على الرغم من انبثاق إشارات متواترة تكشف أن أولوية الحسم بالنسبة للأنصاري في تلك المعركة، إنما هي الصمود والتغلّب على العلة الجسدية، إذ كانت هي "النازلة" التي تقف حاجزا أمام ما كان يأمل أن يكون له من بلاء.

ويقع التطابق المسلكي بينهما كذلك، اعتبارا لما كان يرشّح له الأنصاري نفسه في المحنة التي يمر بها، من حيث وجوب السير على خطى شيخه، فيمضي على نهج من التماسك، والتجرد، والتعالي عن الوهن، والتواري عن الأضواء؛ فالاقتداء بأهل الريادة و"النموذجية" يعني أن نتعلم كيف نتَلَقّى السهام بسنّ ضاحك، ووجه طلق، وملامح تخفي طعاناتها وراء خطوط من الاستبشار.

في إسطنبول

أبحر الأنصاري إلى إسطنبول على أمل الشفاء، وحل بتلك الحاضرة ذات الماضي المجيد، وألقى بنفسه على ذات الموج الذي عبر فوقه سائر الفاتحين: "هنا إسطنبول.. هنا معبر الفاتحين إلى كل أدغال العالَم!.. ما إن دخلتُ بين مآذنها حتى

انتشى قلبي أملاً! لكنني لـمّا اقتربت من جِسْرِ البُوسْفُورِ مَسَّنِي فَزَعٌ!.. كانت النوارسُ تضج في الفضاء بشـكل مثير على غير عادتها..! فلَـم أَدْرِ أَعُرْسٌ هو أم محض عويل؟.. ومن يدري؟".

أجل وإنه لحق قول الله عز وجل ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾(لقمان:٣٤).

تُرى هل أحس الأنصاري وهو يعبر الجسـر، بالنذر ترشقه بسهامها الرعناء؟ هل دَرَى -هو الباحث عن الأسرار- أن رحلته إلى عالم الآخرة سـتكون من صدد ذلك الأفق الذي حل به، في مشفى السماء حيال البحر، وأن الجزر الخمس زينة ذلك العرض الفردوسي، ستكون هي المحطة النهائية التي سينتهي عندها نظره في سعي منه أن يخترق الحجب صوب الأندلس الفقيدة، وصوب المغرب البعيد، حيث الأحبّة، وحيث يمتد الجناح الآخر من الوطن الملّي..

مهيـض الجناح هو بعرض البحر، لا يقدر على حراك، ولا يتأهّل لتحدّ.

مشهد الجسر الرابط بين آسيا وأوروبا، والذي عبره الأنصاري وهو ينـزل بلاد النور، كانت دلالته حادة في شعوره، وعنوانًا على قرب الاجتياز، وشارة منذرة بقرب انتهاء الرحلة وطي الكتاب.

ويحاول الأنصاري أن يستمد السلوى في ليل الوحشة والبعد عن الأهل من هبوب نسـمات الحلم.. فالحلم هو حقيبة البشائر التي يلقي بهـا أمامنا الأملُ حين يلفنا المـوت الأصغر، وهكذا رأى الأنصاري نفسه يَطعم عسلا، ورأى أسراب النحل تعتصر الرحيق من مآقي شـيخه الإمام.. وواضح أن الدلالة الاقتضائية تومئ هنا إلى ما كان يتبَرْعـم في روح الأنصاري من أمل بنيل الحاجة، والأوبة إلى وطنه محمَّلا بالمغانم.

بل إن للنحل والعسـل -هنا- دلالة مناطة بمطمح الشـفاء الحقيقي والمجازي الذي ينشده الأنصاري بَلْسما لمرضه الحسّي، ومرض الأمة المعنوي.

من جهة أخرى نراه يسـترفد للحالة التي تطبق عليه بعتامتها بيتا للمعري:

أَبَكَتْ تِلْكُمُ الْحَمَامَةُ أَمْ غَـ *** ـنَّتْ عَلَى فَرْعِ غُصْنِهَا الْمَيَّادِ..؟

فالشعر في حال انهدار المعنويات، له دور السند على كل حال، وواضح أن الأنصاري، ومن خلال تسويق هذا الشاهد الشعري، يرسـم صورة للوجود، ليس كرؤية شك وحيرة وعدم إذعان، وإنما كحسـرة على الأفول العاجل وحُرقة على المغادرة المبكرة.

سماء الأمل

إنه يعيش مفصلا دقيقا، بـل متصدعا من عمره، لا تفتأ النفس تبحث فيه عن مسـرب للانفلات من تحت الأنقاض، وإنّ وقْعَ ذلك الوضـع المتأزم ليتردد دويه العنيـف في أوصال الخطاب: "..لِزَمَانِ التحولاتِ وَقْعُ الزلازلِ على المنَازِلِ"!

النفس تظلّلها آناءات من الأمل وأخرى من اليأس، وتلك هي حال من تكون إصابته ضاربة في الأغوار، فحيالَ جثوم الحسـرة على القلب، لا يسـع الخطاب إلا أن يـراوح بين محطتي الأمل واليأس، إذ لا تملك النفس إلا أن تلازم تلك الكوة الصغيرة المطلة على سماء الأمل تتطلع منها، لكن مسلسـل الانهيارات يسـتمر دويُّه، ويسـتمر شـريط الصور القاتمة يلف الحس بحَبْل الكآبة، يلتمع حينا، ويرتـد إلى دكنته حينا آخر، فيطول العناء، ويتزايد حجم التمزقـات: "كانت الأرض تـدور بمنـزلة ذات طبيعة أخرى، تتداخل فيها الشعاعات بين غروب وشروق!".

واضح أن سياقات المدخل لبثت تومض باللون الأحمر، لون الخطر، معلنة عن تكدر الأفق ببوادر حُدادية، بحيث إن مفردات الخطاب ذاتها تعكس شيئا من برودة المدافن، وارتجاف القلوب المقهورة: "وكانت الريح تقصف ببرد قارس! وأسـرابُ الحمام والنوارس تطير هاربة، لتحتمي من صقيعها تحت أضلاع المآذن والقباب!".

إن الحماية هنا مطلب ملحّ، يَخُـصُّ الأنصاري، وإن مناط هذه الحماية بالنسـبة إليه هو الاعتصام بالمآذن والقباب. خطاب الرواية في هذا الشطر من التوطئة يفصح عن كثير من المضْمَرات الروحية، ربما غير المدركة حتى من قبل الكاتب نفسه، والتي تعبر عن تعمّق حس الاستشفاع لديه.

إن مطلب الاحتماء يظهر ملموسـا في ثنايا الخطاب، ومن خلال إيعـازات واضحـة. ولقد طفقت الأدبية وهي تسـرد موضوعها، تلَوِّنُ المساقات بلون النفس وغبش جوها الصقيعي. هناك إفراغ وجداني تَهيّأ للأنصاري في مدخل الرواية، فاسترسل يغترف من عدة شـاعريته، ويصوغ ألحانا فيها نبرة حزن معلنة. بل إن العبـارات أحيانا لَتعكس في حدَّتهـا وجنائزيتها صورة الانتكاس، والانقباض، والانطواء على الذات، والانتظار المؤذي، والتطلّع إلى اليد التي تمسـح على الجسـد بأنامل بَلْسمية تزرع العافيـة.. هذه هي نوعية الأصداء الـتي تنتهي إلى حس القارئ وهو يتابع مطلع الرواية.

ألم الميلاد

ولأن الأنصاري روحاني بِجِبلّته وعميق إيمانه، متمرّس بتلقي الإشارات وعَقْد نِيّاتِ الاستخارة، فقد أمْكَنَهُ -كما تخبر الرواية- أن يقرأ في ما تلقاه من واردات أن النورسي يحيله إلى صاحب الزمان الذي سيتمكّن من أن يجد لديه حاجته ويحصّل بغيته: "أما علمتَ أنَّ لكل زمان صاحبَه؟".

ولا يسع الأنصاري إلا أن يستوثق ليعرف من هو "صاحب الزمان"، فيأتي رد النورسي مفصل الإشارات والدلالات، إذ قال: "ويحك يا صاح! أما صاحب هذا الزمان فله مولدان اثنان! أولهما هو في المكان، وقد كان الذي كان؛ وأما الثاني فإنما هو في الزمان! فَارْتَقِبْ إبَّانَ هيجانِ الجرح، يومَ تأتي الرياح بحداء الأنين! فإنه لا ميلاد إلا بألم! واظفر بثاني المولدين تَرِبَتْ يداك! إنك يا ولدي إن تدرك إشراقتَه تكن من الفاتحين!".

ويفلت منه سؤال معرفة المصير: "قلت: فهل لي أن أكون من طلائعهم؟"

وواضح أنه بهذا السؤال يُصِرُّ على أن يكون واحدا منهم، بل أن يكون طليعة الطليعة، لأن في ذلك الموقع المتقدم تتحقق له الحياة الحق. إن المؤمن لا يرهبه الموت عندما تكون المزاحفة هي الطريقَ إلى الهدف، إنما الموت الذي يقهر المؤمن هو الموت خارج ميدان المعركة، إن توقّف المسلم عن الزحف بشتى أنواعه التعميرية والدعوية، يُعَدُّ بطالة قاتلة، حيث تكلّ أسباب الصمود، وتتراجع إرادة المغالبة. ولقد عبّر سيدنا خالد بن الوليد عما يجده المؤمن من وطْأة وغبن جرَّاء انتظار الموت على فراش العلة: "ها أناذا أنفَقُ في فراش السلولية كما ينفَقُ العير في المراح.. فلا نامت أعين الجبناء".

إن انتظار الأجل يتحول عند المبْتلين إلى حالة من الإنهاك الكابوسي الذريع، أشبه بواقعه عدوان غاشم يستولي على الحمى بلا مقدمات.

لم يعد حس التقارب بين إسطنبول المتجددة وبين المغرب، يتم افتراضا في ذهن الأنصاري فحسب، بل لقد بات التواصل العملي والروحي بين الصعيدين حقيقة يعيشها الأنصاري، ويجد فيها شيئا غير قليل من دواعي التنفيس، بل لقد بات التقارب بين القارات من آيات التبشير بحلول زمنِ تجدّد الزحف الذي سيطوي البسيطة ويوصل رسالة الله الخالدة إلى العالمين.

رمزية الأشياء

ولقد تبطّن خطاب الرواية بإيعازات ورموز تنفتح دلالتها على التفاؤل. ولا غرو أن يكون الأمر كذلك، فإن وازع المقاومة يجد في استدعاء معاني البِشْر والتفاؤل، وفي اللوذ بحُرمة المقدسات، ما يلبّي شيئا من حاجة النفس إلى الإسناد والثبات. ويمكن -في هذا الصدد- أن نرى في تواتر لفظ الحمام وجها من هذه الصمودية التي تقتضيها منا الأوضاع الصعبة. إن لفظ الحمام يتردد في هذا المدخل بكل ما يومئ إليه من رمزية ودلالة تجسّد مطلب البحث عن المنَعة والخلاص والتواصل والسلام. إن في مدلول لفظ الحمام إحالة إلى محيط الأشواق التي تمور في أعماق الكاتب، البعيد عن الأهل، والمقيّد بالأثقال.

إن الخطاب يشتحن بمحمول دلالي موضوعي ينساق في الوجهة التي تتوخى الرواية أن تسلكها، وهي تدوين سيرة الإمام، وهذا المحمول الدلالي الموضوعي يلابسه محمول دلالي آخر ذاتي، لا يفتأ يعترض السياقات، لينفّس عن لواعج النفس، وفي كلا الحالين يظل السياق يعرب عن تفاؤل ينسجم مع طبيعة المؤمن الذي -بفضل إيمانه- يستمد رحمة الله من صميم تعاليم عقيدته: "ارْفع رأسك قليلا نحو الأفق الأعلى؛ تَرَ شمس البشرى ترتفع الهوينى من خلف الأحزان، وتَرَ كلمات النور الأولى ترسم بين يديها قوس قزح، وتطرّز على

موج البحر نبوءَتَها.. فإذا كنتَ ممن يحسن لغة الماء فاقرأ: "تُفْتَحُ القسطنطينيةُ أوَّلاً ثم تُفتح روميةُ!؟".

وحين يشير الخطاب إلى نص الحديث "تفتح القسطنطينيةُ أولا ثم تفتح رومية"، فإن مدلول الفتح هنا يوعز بالبعد التأييدي الذي تفيض به جوانح الأنصاري حيالَ مشروع الدعوة والتأسيس الذي ينهض به الفاتحون، ويوعز في الآن ذاته إلى المطلب الخلاصي الذي يتطلع إليه الكاتب، إذ من العقيدة ونصوصها، لاسيما من تنبؤاتها المستقبلية (المآلية) ومبشراتها المصيرية يستلهم الأنصاري في محنته الألطاف الإلهية. فالكاتب لا يفتأ -على هذا النحو الخطابي المتراسل- يستنزل الرحمات الإلهية، إذ لا ييأس من أن رحمة الله قريبة منه، وأنها ستتخطّى به ذلك الصعيد الحالك للمحنة التي حلّت به.

وكما رتّب القدر للإمام فتح الله موعد ولادة ثانية قد بدأت علاماتها تلوح في الأفق من خلال الإنجازات الميدانية، فكذلك بات رهان الأنصاري يتركز على ما سيتحقق له من مولد ثانٍ مُرتجى، مولد الانبعاث وعودة العافية إلى الجسد المخترَق بالداء. والسياق الحواري يسدّد نحو نقطة حاسمة، مركزية، يريد الأنصاري من خلالها أن يعرف هل يُكتب له أن يكون من طلائع هذا الزحف الذي شرعت كتائب الفتح تنتشر في الآفاق. إنه في ذلك الموقف المشوش، يُشبه وضع موسى عليه السلام مع فتاه في قصة العبد الصالح. لقد تقاطعت في وجدانه صورة موسى عليه السلام مع فتاه، وصورته هو مع مرافقه الذي يرعاه ويسهر على خدمته: "قلت لفتاي: ويحك يا ولدي! ذلك ما كنا نَبْغ..".

هكذا يستدعي السرد مقامات الارتحال والضرب في الأرض كما جسّدتها الرموز ممن حازوا مرتبة العبْدية على معابر من نار العبودية والتمحيص. فالإحالة السردية هنا تستحضر قصة العبد الصالح مع فتاه، في سفَرهما الخارق، وتحيل إلى تجربة التمحيص التي كشفت -في جملة ما كشفت- عن تلك المشاقّ التي تَعْرِضُ لمن يراهن على تحصيل السر، والظفر بالحقيقة.

وطبيعي أن التماثل بين فتى موسى والأنصاري تماثُلٌ في المقصدية، إذ إن مطلب الأنصاري في سفره أن ينفذ إلى برزخ التجدد، فيغْنَم من رحلته تلك، ويعود إلى وطنه معافى، وصاحب حاجة، وجنْديّا قد تم إدماجه في المفرزة، عن جدارة واستحقاق: "ثم مكثت عاما كاملا بعد تلك المشاهَدات! أنتظر المزيد ولا من مزيد! ورجعتُ إلى وطني أنتظر الإذن بالرحيل مرة أخرى إلى بلاد النور!".

عودة إلى الديار المغربية

وتومئ القصة إلى بعض أطوار تلك السنة التي قضاها الأنصاري في المغرب، يتصيد الانبثاقات الفجرية من هذا الصدد وذاك، وكل شيء من حوله يذكّره بفواجع التاريخ، فالنفس المروّعة لا تَقرأ في الأفق إلا ما يتساوق مع انكسافها: "ما بين طنجة وجبل طارق، يَرْقُدُ بوغاز الأحزان!.. لم تزل نوارسُه كلَّ مساء تحكي بنشيجها الشجي مأساةَ الموريسكيين".

وطبيعي أن تأتي اللوحة مفعمة بمعاني النعي والرثاء والقشعريرة والهيجان الشعوري العارم: "كنتُ أسير حافي القدمين ما بين طنجة وتطوان؛ لعلي ألتقط صوتَ حمام زاجل، قيل لي: إنه لم يزل ههنا مُذْ عَبَرَ أميرُ غرناطة الأخير طريداً من جنّته! فرثاه هذا الحمام الغريب بكنوز من أسرار الحكمة! قيل لي: إن له هديلا كلما انطلق شجاه اقشعرت له صخور الشاطئ! وبكَت النوارسُ واهتاجت الأمواج!".

إن انقطاع مدد التجليات عُقْمٌ وجداني لا تحتمله روح المرابط.. ومع ذلك تأْبى النفس إلا أن ترابط عند إقليم الرجاء، خلف أسوار ليلِ القنوط، متصبرة ومحتسبة، تتوقع حلول رحمة الله في كل آن.. ويتحدث الأنصاري عن مواعيد شقية كان الابتئاس يشتد فيها عليه. وتبلغ تلك المواعيد ذروتَها عند حلول المساء، والمساء كما نعرف هو مناط عذابات المفجوعين، فتنوع مشاهد النكبات تغدو هي المحطة التي ترسو عليها أرواح المنكوبين حين يحل الليل، وهي العلقم الذي يدمنون على تعاطيه في ذلك الميعاد المليء بالوحشة والزمهرير.

استحضار النكبات

وواضح أن استحضار الأنصاري لنكبة "المورسيكيين" ضمن هذا السياق، ينسجم مع الحال التي كان عليها، فالمرسيكيون هم أولئك المسلمون الأندلسيون الذين قهرتْهم دورة القدر، فقضت عليهم بالهجرة، بل قضت عليهم بأن يكونوا آخر من يغادر الديار طُرداء لا ملجأ لهم، إلا قاع البحر، حيث ستأتي عليهم الأمواج والحيتان: "وبكت النوارسُ واهتاجت الأمواج!".

لا ريب أنه تصريحٌ بتجربة التمسّح بالمقامات والمشاهد ومثابات التعزية التي يكون الأنصاري قد خاضها وهو يناضل ضد أشباح الشؤم، ويتداوى بعقاقير الروح وتشفعات أهل الكرامات، بمن فيهم العاكف فتح الله..



إن الكتابة عن الرموز تعني الانخراط في السلك وإعلان الانتماء. والأنصاري حين أصر على أن يختتم رحلته الحياتية بتوثيق سيرة "إمام المرحلة"، فإنما شاء أن يعلن انتسابه الروحي والأدبي إلى كتائب هذا الإمام العارف بالله، العامل على ما يخدم عباد الله، ويكفل لهم سعادة الدارين.

لقد كان واضحا أنه هب من موطنه، وطار إلى حمى زُهَّاد النور ينشد الحماية والاستجارة والاستظلال بوارف نفحاتهم، ولقد رابط عندهم يستعيذ بالكرامات، وأثناء ذلك لم ينقطع عنه هو أيضا بكاؤه، فمِن شأن مجاورة أهل الحال أن تَجعل ينابيع الروح تتفجّر.

وتأبى صورة الشجى في الوجدان إلا أن تستحيي معالم الحزن الدفين الذي تمثله نكبات التاريخ في كل من الأندلس الفقيدة وإسطنبول التي ضيعت تاجها بضياع الخلافة منها.. لم يعد حس التقارب بين إسطنبول المتجددة وبين المغرب، يتم افتراضا في ذهن الأنصاري فحسب، بل لقد بات التواصل العملي والروحي بين الصعيدين حقيقة يعيشها الأنصاري، ويجد فيها شيئا غير قليل من دواعي التنفيس، بل لقد بات التقارب بين القارات من آيات التبشير بحلول زمنٍ تجدّد الزحف الذي سيطوي البسيطة ويوصل رسالة الله الخالدة إلى العالمين.

إن الجغرافية بفضل ما توفر للإنسانية اليوم من إمكانات الاتصال، قد تقهقرت وقهرت المسافات والأبعاد المكانية الفاصلة بين الأنحاء والأقوام، لينتعش التاريخ في ضوء هذا التطور الذي حقق حلم طيّ الأرض وجعل العالم قرية واحدة ينتقل المرء بين قاراتها كما ينتقل بين أحيائها، والوعي بهذه الحقيقة هو ما يهب للأنصاري بعض ما يلطّف من محنته، إذ أن التطوّر بات يكفل للأنصاري أن يطير بجناحه تارة أخرى، إلى أرض الأنوار. ويحل بإسطنبول: "هذه إسطنبول مرة أخرى..! ناداني خاطرٌ حزين! قال لي: مقامك حيث أقامك! لا مكان لك اليوم يا صاح إلا بمنزلة الاستغفار! فصرتُ أسمع صوتا من أعماق فؤادي، يتكسّر موجُه هوناً على شطّ لساني: رب اغفر لي..! رب اغفر لي.."! ويروي ظروف نزوله بها: "ها أنا ذا محمول على سيارة، كنت مريضا جدّاً! لكني كنت على وعي بما أسمع وأشاهد.. كل شيء أدركه الآن، هذه الطريق الكبرى وسط إسطنبول، وهذه قبابها ومآذنها عن اليمين وعن الشمائل، تلقي بأنوارها في كل اتجاه.. وهذا هو الجسر العظيم، هو جسر نُصبَ حديثاً، لكنه منصوب على تاريخ الفتوح بين آسيا وأوروبا! فلم يزل بعد ذلك قنطرةً لعبور النور

الجديد إلى المستقبل! وهذا... آه! هذا مستشفى "سماء" مرة أخرى!.. وهنا أدركتُ للتوّ مقامي! وعرفتُ أنني قد أخفقت في الامتحان الأول! فاستأنفت دروسي بفصول المدرسة الأيّوبية من جديد!".

فمن خلال هذه السياقات التي يرتد بها الخطاب إلى الذات، تطفو الشجون، فنقرأ تقاطيع من السيرة الذاتية للكاتب، وتحديدا نقرأ يوميات عاشها في إسطنبول، أثناء مرحلة الاعتلال واليأس والغروب: "كان رأس السرير ميمما نحو القبلة، وكانت النوافذ الكبيرة مشرعة الأحضان على بحر مَرْمَرَة، والْجُزُرُ الخَمْسُ وَسَطَهُ كلها تنتصب أمامي كالأعلام.. كانت الشمس على وشك الغروب خلف قَدَمَيَّ، وكانت أشعتها تطرّز مَرْمَرَةَ بمرثية الأشجان! وترسل إليَّ أهازيج من أذكار المساء، مُرَتَّلَةً عبر أوراق شجرة الدُّلْب المنتصبة خلف نافذتي! حتى إذا مات النهار شاهدتُ جنازتي ترتفع أمامي في أفق البحر الغارب، وتذكرتُ صلاتي! أدَّيْتُ العشاءين جمعاً وقصراً؛ استباقا للحظة الوصل، ثم بكيتُ! كان الليل قد أشرقتْ مواجيدُه سُرُجاً تتلألأ في جزر البحر، وكانت مصابيح الساحل تحلم خافقة بشيء ما.. وغمرني الحنين إلى أورادي، فما أن شرعتُ في ترتيل مواجعها، حتى انهمرت على قفاي صفعاتُ الرحمة تَتْرى! هي رحمة نعم لكنها صفعات! وكان الألم يا سادتي شديداً!". هكذا تترجح كفّة اليأس، ويتحدد الطريق المفضي إلى الاستسلام.

ولما كان الخطاب يتسع إلى أكثر من منحى دلالي، أمكننا القول بيسر إن السارد -وفي سياقات عدة- كان يتحدث عن نفسه ويتحدث في الوقت ذاته عن الأمة المُصابة في مقاتلها، الباحثة عن الحياة وعن الشفيع والمنقذ. وفي غضون ذلك كله لا يَفتأ اللاشعور ينعي للكاتب ذاتَه من خلال مساقات وبَوحيات سرديّة: "سنة كاملة يا سادتي وأنا أجري بين غروب وشروق! سنة كاملة وأنا أظن أني كنت أغسل أدران الروح عن بدني، ولكني اكتشفت الآن أنني لم أبرح مكاني! فعدت مثقلا بكل ذنوبي! لقد أخطأت الطريق إذن! فكان الحكم أن أعيد الدرس من البداية! فالرحمةَ الرحمةَ يا الله!".

وارث السرّ

والرواية عند هذا المستوى من التسديد، تصطنع مقطعا إنشاديا توظفه على هيئة لازمة وقفل، يتردد في أعطاف النص أكثر من مرة، تُحيل فيه إلى مقام الإمام فتح الله، باعتباره بانِي الجسر نحو المستقبل، والوريث الروحي لتاج الصالحين: "فَتْحُ اللهِ لَدَيْهِ سِرٌّ تنتظره الدنيا، لكن لا يخبر به أحداً!..



فَتْحُ اللهِ يحمل في قلبه ما لا طاقة له به؛ ولذلك لم يزل يبكي؛ حتى احتار الدمعُ لِمَأْتَمِهِ! فَتْحُ اللهِ وارثُ سِـــرٍّ، لو وَرِثَهُ الجبل العالي؛ لانهدَّ الصخر من أعلى قمته، ولَخَرَّتْ أركانُ قواعدِهِ رَهَباً!". وتنوء اللغة المســتخدمة بشحنات من الأسى، ومن الرهق وأعباء الكآبة المضمرة في الروح، فيأتي السجل حافلا بمفردات الولع وعبارات النواح.

إن حلوله في أروقة المستشفى-آخِر أصعدة النجاة أو الهلاك- ومواجهة الواقع غير المبشر، يفجر منابع الألم فيه. ومع ذلك يتقوى الأمل والتشبث بالبقاء.

هو نزيل "المدرســة الأيّوبية"، ولئن كتب الأنصــاري عن فتح الله وهو على تلك الحال من الابتلاء، فلأن فتح الله هو عَيِّنة أيّوبية مُكبَّرَة، تعاني من اعتلالات أشــدّ إزمانا: "وحدة، واغتراب، وانهماك في شق الدرب أمام الأمة، وإدامة المجاهدة على أصعدة الروح والخطة".

ولقد بذل الخطاب من جهود التورية وإخفاء العواطف، ما جعل المنحى الســردي العام، يفْلح في تخطي مساحات الاســتدراج والإغراء التي ظل الموضوع يضعها في طريق الكاتب، لاســيما والنفس معبأة بمشــاعر الفجيعة، فهي من ثمة في مســيس الحاجة إلى تركيز وجهة الإعراب والتفريغ على ذاتها وشجونها الشخصية. ولذلك نجد أحيانا التورية تصطنع الخطاب اصطناعات بديعية وجناســية، إذ لا نَنْســى أن الأنصاري أحد فحــول القريض، فاختزال العواطف وتســويقها في الصِّيغ المكتنزة مــن صميم خبرته. إن قوله مثلا: "غمرني الحنين إلى أورادي..". يغطي على مضمر سردي هو: "غمرني الحنين إلى أولادي".

وفي مَشْفى سماء السماوي، يجد الأنصاري نفسه يقرأ سيمْياء المكان، ويفكك رموز الموقع والأبعاد، وتتوطّد الحميمية بينه وبين الأشياء، فهو يرجو الرحمة من كل أفق.

لا ريـب أن وضـع الأمة اليوم لا يـكاد يبتعـد عـن وضعهـا الـذي كانـت عليـه بالأمس، فهـي تبحـث اليـوم أيضا عن الحامي، عـن شقيق أكبر يكفل لهـا المنعـة والعـزة والصون.

مواجع الروح والجسد

لقد ظلّ يَأْســى لنفسه، ولعجزه، وانقهاره عن أن يكون قادرا على التجدد، مؤهَّلا لاحتلال منــزل له في مقامات الزمان. ويتحدث عن نافذة المشــفى حيث امتد ســريره، ذلك لأنه يدرك أن للنافذة شــأنا في ما سيكشف عنه من أخبار الداعية الإمام، كما سيرويها للقراء في ســياقات روايته تلك. كانت نافذة المشفى مشرعة، لكن البحر لا يتيح له النظر إلى الأبعد، إلى العش، فالعين كانت تريد أن ترى مكناس، أن ترى العافية. في تلك الأثناء كان هناك همٌّ واحد يسكنه، أن يعرف نتائج الفحص الطبّي.

لقــد اطمأن إلى هذا المرافق النوراني الذي يلازمه، بل لقد تأثر بما كان عليه من روحانية جلية، فكان حضوره معه يخفّف عنه بعض العناء، واشتدت الصلة بينهما ليس فقط لأنه كان مرافقا من طراز خاص، ولكنه إلى ذلك، كان وسيلته إلى معرفة الحقيقة، حقيقة مرضه: "سألته ماذا قال الطبيب؟ وانتفضت جوانحه بقوة لكنه لم ينْبس ببنت شفة! بيد أني يا سادتي سمعت الكلام ينطلق متدفقا من بين جوانحه، وكأنما هو صدى لهاتف يتنــزل عليَّ من العالم العلوي!".

فالأنيــس المرافق ظهر أنه من أهــل الورد، وأنه من ذوي الشــأن على صعيد مراتب المعراجية، بل وأنه يتبع الحمية ذاتَها التي ظل كولن ينصح بها المرشــحين للمرابطة. "قال لي:

جســمك مرتبك جدا يا صاح! لكنما هو رَجْعٌ كسيرٌ لصورة الروح في خابيتك الكسيرة! أما الأطباء فلهم مسالكهم إلى طينك المسنون، وأما من يســلك فيك نحو جراحات الروح.. آه! أما مَسْلَكُ الروح إلى مواجعك يا صاح...آه! ثم سكت!"

وفي كل ذلــك ظل الكاتب يغترف من معين الذاتي، ويطغى لاعج الاعتلال على حبل السرد، فيجمح الخطاب ويرتد إلى حيِّز الروح، ويلوذ بالمجازية يواري بها أشياءه الصميمة المكسرة، ويهرع ينحاز إلى جوقة الأخيار، يدفن في مواجعها عويل روحه، ويستمد من الإحســاس برابطة التجانس معهم الثباتَ والقوة والتماسك.

لقد ظلّ الصالحــون وعلى مدى العهود، يصنعون البحيرات من دموعهم، وتلك البحيرات لا تفتأ مشرعة، و"لم تزل ترفدها منــذ قديم الزمان دموع الحواريين، وأشــجان الصحابة الكرام، ومكابدات النُّسَّــاك المتعبدين، وزفرات أويــس القرني، وبكاء الحســن البصري، وشــهيق أبي العالية الرياحي، وأسرار الإمام الجنيد، وأنفاس بشر الحافي، ومواجع الحارث بن أسد المحاسبي، ومواعظ الإمام عبد القادر الجيلاني، ومجاهدات الشيخ أحمد زروق الفاسي، ومواجع عبد الواحد بن عاشر الأندلسي، ومشاهدات بديع الزمان النورسي!".

شعرية السرد

الأدبية تأخذ أحيانا ســياق الأوراد، فيتلابس المضمون السردي كما تعرضه مســاقات الروايــة في مفتتحها، مع مضامين الذكر والأدعية المتواترة في حلقات الذاكرين. الديباجة التي ميزت مفتتح "الرواية-السيرة"، كانت بحليتها الأدبية الراجحة، وبتأنق شعرية خطابها، وتألق نبرتها، أقدر على امتصاص المشاعر والتنفيس عما في النفس من كروب المأْتَميّة.

وســنرى كيف أن السرد حين باشــر التوثيق لحياة الأستاذ الإمام، قد تَخفّف من لبوس شــعريته، فالتعبئة أضحت في ذلك المستوى من الرواية، تعبئة مواقع وعراكات ومآثر وقُرُبات، بحيث أضحت الرجاحة في الخطاب لعرض الأحداث، وذكر المناقب، وإحصاء مواقع الاشــتباك والنــزالات التي تشكلت منها هذه الســيرة الحافلة بالثمار، لأن المقام مقام استظهار مكونات هذه الملحمة وإبراز مفرداتها كما ارتسمت على شريط العمر.

شخص الأنصاري كما برز في سياق السرد، ظل يمثل الأمة في عصر الغبْن الذي ســلف، حين مدت يدها للشــقيق الأكبر تستدعيه وتستنجده وتحتمي به من انتهاكات الصليبيّين.

الاستخلاص

لا ريب أن وضــع الأمة اليوم -زمن رجوع نكبة الاســتعمار العســكري من جديد إلى أوطاننا كما وقع في العراق- لا يكاد يبتعد عن وضعهــا الذي كانت عليه بالأمس، فهي تبحث اليوم أيضا عن الحامي، عن شقيق أكبر يكفل لها المنعة والعزة والصون. وتركيا إذا ما أحيَتْ روحية الإسلام والحضارة، وابتعثتْ مشاعر القوامة الملّية التي تميزتْ بها الخلافة العثمانية، وإذا ما اســتنفرت قدراتها المادية والمعنوية، وعرفت كيف تتقرب من أشقّائها وتقربهم إليها، فستجد نفســها متأهّلة من جديد لمدّ أجنحتها وأشرعتها على جغرافية الأمة، والسير معها نحو الرفْعة والسؤدد والمشاركة في صنع التاريخ العالمي، كما كان شأن الأمة بالأمس.

إن الكتابة عــن الرموز تعني الانخراط في الســلك وإعلان الانتمــاء. والأنصاري حين أصر على أن يختتــم رحلته الحياتية بتوثيق ســيرة "إمام المرحلة"، فإنما شاء أن يعلن انتسابه الروحي والأدبي إلى كتائب هذا الإمام العارف بالله، العامل على ما يخدم عباد الله، ويكفل لهم سعادة الدارين. ■

(*) جامعة وهران / الجزائر.

بدا حاجب الأفُق

شعر: فتح الله كولن
تعريب: فريد الأنصاري(*)

أوشك السفر على الانتهاء،
وبدا حاجب الأفُق،
ذاك الربيع الذي كان مخضرًّا بكل أشكاله،
أصبح اليومَ مصفرًّا..
الروح كالورقة، مهيَّأة للرحيل،
والقرار مَوكول إلى "القلم"،
لِيخُطّ النقطة الأخيرة..
فجأة.. كلُّ شيء بشتَّى ألوانه،
ارتدى بُعدًا أخرويًّا؛
ثم بدت نسائم العالَم الآخَر،
وانكشفت غايات الأحلام الكاذبة واحدةً واحدة..
على كاهلي الآن جبَلٌ عظيم يوشك أن يتزلزل،
وفي أملي يتلألأ الربيع...

وها كل عضوٍ مني يرتجف مثل أوراق الشجر،
كأنني الآن ميزان الألم:
في إحدى كفّتيه الخوف، وفي الأخرى مطلق الرجاء..
وموج الأكدار يضرب شاطئ السرور والأفراح،
أحيانًا في غاية السرور أنا، وأحيانًا أجهش بالبكاء،
ألطاف تنـــزل وابتلاءات تهطل...
وكالغيث يشوبه الثلج ينهلُّ عليَّ،
والمشاهد تترى، والستار ينفرج وينسدل...

كأن الميعاد قد حان،
وفي الأفق شفَق جديد،
ظِلُّ العالَم الآخر يلامس وسادتي كل حين،
في ربوع قلبي شاهدتُ سابقًا ذاك الطلوع،
فصلا بعد فصل،
فوجدتُه أشدّ طرَبا من أشعّة ربيعيَ الأول...
ولكن، إذا بقيت فرصة لخدمة ديني بعد اليوم،
فصبرا على الحياة هنيهات،
وحُقّ لها أن تعاش فترة أخرى،
أما الآن فهمِّي الوحيد هو أن يُعرَف المولى العظيم،
ليت شعري، ربما بعد بضع خطوات،
يُعرَف أكثرَ مما كنت أحلم وأتوق...

(*) لقد قام بتعريب هذه القصيدة الموزونة بأسلوب الشعر المرسل، الفقيد المرحوم فريد الأنصاري بعد أن قُدِّمت له مترجمةً ترجمة حرفية، وكان ذلك من آخر أعماله رحمه الله.

فارس بلا جواد

في مديح النخيل السجلماسي (فريد الأنصاري)

أ.د. حسن الأمراني *

صدق الوعدُ ليس يُخلِف وعدَه ... لقد اختار موكب النور لحده

ضاق عن وجده الزمانُ ومافيـ ... ـه فألقى لجنةِ الخُلد وَجْده

برح الشق بالمحبّ وقد كـ ... ـان عبيرُ الأشواق في البدء مهده

ونخيل الأنصار كان عريشا ... وهديل الأشعار كان مِخَدّه

صارمٌ ما نبا على كثرة الضر ... ب، فقد آن أن يعانق غمده

آن للفارس المتيم أن يأ ... تي فرداً مولى سينشر وده

"آخر الفرسان" امتطى صهوةَ العشـ ... ـقِ وكان النور المؤيّد جنده

سلك الشِّعْبَ، لا حطامَ، فلمّا ... برز الأفْقُ أصبح النّورُ عُدّه

السجلماسي انتضى ريشة الحُـ ... ـبّ وألقى إلى المساكين رفده

ما تولّى حين ادلهمّتْ خطوب ... لا ولا خان في الحوادث عهده

إن "كشف المحجوب" غايته القصـ ... ـوى فأوما له، فأدرك قصده

علّم الناس كيف تغدو "القناديـ ... ـل" صلاةً، ويصبح الليل وِرده

شق للصحْب درب عشق فلمّا ... آنس البحْر راح يركب مدّه

يا خليلي، تركت قلباً يتيماً ... يتلظى، لا شيء يبْرد وقده

يا خليلي حقّاً، وصاحب دربي ... كيف خلّفت صاحبَ الدّرب وحده؟

هو للنور ظامئ ويداهُ ... في قيود، فمن يُحَطّم قيده؟

ونداء المحبوب يوقد في الرّو ... ح سراجاً يضوي، ويزرع وده

وأنا فارسٌ بغير جوادٍ ... فأعرني جواد حبّك وانده

ما على العاشقين إثم إذا ما ... صدقوا وعدهم ويصدق وعده

(*) رئيس تحرير مجلة "المشكاة" / المغرب.



إن أيّ نشاط أو حركة معينة، مهما تمثلت بمشاعر مخلصة، قد لا تكون بنّاءة دائماً. إن النية الخالصة جديرة بالتقدير باعتبارها بعداً معنويا في الأعمال الصائبة؛ لكن لا تحمل المعنى نفسه البتة إذا كانت وصفاً من أوصاف العمل الخاطئ. إن أي حركة من الحركات قد تكون بنّاءة أو هدّامة حسب أنماط عرضها.

تركيا: ٥ ليرات • أوروبا: ٣ يورو • أمريكا: ٤,٥ دولار

ISSN 1306-1879
9 771306 187009 18
www.hiramagazine.com